عبـ[illegible] العقّاد

على [illegible]ثير



Bibliotheca Alexandrina
0135001

دار المعارف

على الأثير

عباس محمود العقاد

على الأثير

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

كلمة تقديم

كان يقال : كلام ذاهب فى الهواء ، ليقال إنه كلام لا يبلغ الآذان ، وإنه – من باب أولى – لا يسلك سبيله إلى الأذهان .

ولكن الكلام الذى تتلقاه الأذهان من طريق الهواء فى زماننا هذا أكثر وأسير من كل كلام يتلقاه الناس ، على صفحة قرطاس .

فمن أودع كلامه الهواء أودعه فى أمان . إلا من الزمان .. فعنده الحكم وحده فى مصير الوديعة .. من حفظ أو نسيان .

وقد أودعنا الهواء هذه الكلمات فى وقت من الأوقات .

وبقى أن نودعها أيدى الزمان ليقضى لها بما شاء ، على هوى القراء .

ولعلها لا تضيع بين الهوى والهواء .. !

عباس محمود العقاد

محمد عبده

الصبر على أداء الواجب درجة رفيعة من درجات الأخلاق الإنسانية .

وأرفع منها الصبر على أداء الواجب الذى لا يطلبه أحد منك ، ولا يحاسبك أحد عليه . وأرفع من هاتين الدرجتين صبر الإنسان على واجب يضار بأدائه ، وينتفع بتركه ، وقد يتركه فيغنم المحبة والثناء .

تلك درجة الأئمة من المصلحين .

وهى الدرجة التى استوى عليها مصلحنا الكبير : محمد عبده ، رضى الله عنه .

* * *

فما من واجب من الواجبات الكثيرة التى اضطلع بها فى الإصلاح الدينى أو إصلاح التعليم والأخلاق ، كان مطلوبًا منه أو مفروضا عليه .

وما من واجب من تلك الواجبات كان سهل المنال متيسر السبيل ، موفور الأعوان .

وما من واجب منها كانت فيه منفعة تعود على الرجل فى ماله ، أو سربه ، أو من يعول .

كلها كانت واجباته التى اختارها لنفسه ولم يفرضها أحد عليه .

وكلها كانت من الصعوبة والإعنات بحيث تتقاصر دونها الهمم وتحجم العقول .

وكلها كانت خلوا من الربح والشكر . ولو شاء الربح أو الشكر أو كليهما لاغترف من بحار ليس لها نفاد .

رضى الله عنه . لقد كان فى هذا الباب فردًا فى المشارق كلها ، ليس له نظير .

ومن المصلحين من يسومون نفوسهم الصبر على الواجب فى عالم الفكر والضمير ويعفونها من أعباء الواجبات التى تدخل فى عداد الشئون الفردية ، أو الشئون الإقليمية وما إليها .

لكن محمدًا عبده لم يكن ممن يعفون نفوسهم من واجب كبير أو صغير ، فى عالم الشئون الفردية ، أو فى عالم الفكر والضمير .

بل كان غوثًا لكل مستغيث يصل إليه ، وعونًا على كل خير يطبقه ، وملاذًا لكل من يلوذ به من عارفيه وغير عارفيه .

وما شأن مفتى الديار المصرية بحريق فى قرية ؟

وما شأن مفتى الديار المصرية بفقير حائر بين دور القضاء من أقصى الصعيد ؟

وما شأن مفتى الديار المصرية بأديب عربى مغترب من بلاده حيث لا يجود الأدب بالكفاف عل غريب أو قريب ؟

لكن محمدًا عبده له شأن بجميع هؤلاء ، وعند ظنهم جميعًا ، وفوق ما يظنون ويرتجون . فلا يعرف النوم وبين يديه حاجة ضعيف أو مظلوم ، ولا يبخل بوقته ولا بجاهه ولا بماله ولا بشيء فى مستطاعه لإحقاق حق وإدحاض باطل .

رضى الله عنه : ما سمعت قط بنظير له فى هذا الباب .

ونحن اليوم نتكلم عن الواجبات والمروءات واحتمال المسئوليات ، ونبدئ فيها ونعيد حتى أصبح اعتقادها على الأقل شيئا من المألوفات التى لا تقع من الأسماع موقع الاستغراب .

إلا أننا خلقاء أن نرجع إلى زمان محمد عبده لنعرف له فضله . وأن ننسى أيامنا هذه ولا نذكر إلا أيامه هو ، لكى نحسن الوزن والقياس .

ففى أيامه كانت كلمة « أنا مالى » شعار كل مصرى فى كل طبقة من طبقات الأمة .

وكان المرء يوشك أن يسأل عن الحسنة فينكرها ، مخافة أن يكون وراء السؤال حساب أو عقاب .

فى تلك الأيام كان الهرب من الواجب عنوان الحكمة والحصافة .

وفى تلك الأيام كان محمد عبده يتصدى للواجب الذى لا يسأله عنه أحد . ولا يحاسبه عليه أحد ، ولا يجهل ما وراء تصديه له من بلاء وعناء .

وأعجب ما انطبع عليه الرجل من هذه السجية النبيلة أنه كان يقبل التبعة التى لا يد له فيها ، ترفعًا منه عن موقف النصول والنكول ، فكان يشتد فى تخطئة العرابيين قبل إدبار دولتهم ، ثم أمسك عن نقدهم يوم أدبرت بهم الدولة وبطلت الفائدة من نقدهم وأصبحت فائدة النقد كلها للناقدين .

* * *

هذه الغيرة على الناس ، وهذا الوحيد الواصب فى سبيل الناس ، وهذا البر الدائم بكل إنسان من الناس ، لم يكن عن جهل ولا غفلة عن خبائث النفس البشرية وما ركب فى بعض الطبائع من اللؤم والخسة والكنود .

فقد ابتلى الرجل من هذا الجانب بالشىء الكثير : عوجل به فى باكر شبابه ولزمه طوال حياته إلى فراش موته .

ففى الشباب تعلم بعض ما أصابه من الغدر والكنود من رسالته التى يقول فيها : « تقطع الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء » .

إلى آخر ما فى الرسالة من شكاة وتبرم أليم .

أما فى عهد الكهولة ومقتبل الشأن فما رأينا رجلا اتفق الوشاة على الكيد له كما اتفقوا على الكيد لهذا الرجل العظيم .

إما لحسدهم إياه ، أو لجهلهم به ، أو لأنهم يؤجرون على الإساءة ويثابون ، وكان هو رحمه الله يعلم ذلك ويستيقنه صباح مساء ، فلا يكترث له إلا بمقدار ما يعوقه عن سبيله ، ولا يزيده إلا مضيًّا فيما مضى فيه .

فالغيرة على الناس إنما كان مصدرها ينبوع العظمة من ذلك الخلق الكريم ، ولم يكن مصدرها شيئا يتلقاه من الناس أو جزاء ينتظره منهم ، أو انخداعا فى حقيقة ما جبلوا عليه .

وتلك سجية المصلحين .

* * *

إننا نتكلم عن سوء الجزاء الذى يلقاه المصلحون من أهل زمانهم ، ويجب أن نذكر أن المصلحين هم فى الحقيقة أقل العظماء نصيبًا من حسن الجزاء فى الحياة وبعد الممات .

فإنهم ينجحون فى دعوتهم فيكون نجاحهم أدعى إلى نسيان فضلهم والإغضاء عن سابق جهودهم وضحاياهم ، وعن العراقيل التى قامت قبل ذلك فى طريقهم .

فأبناء الأجيال ينشئون وهم يحسبون أن الحالة التى نشئوا عليها إنما هى الشىء المألوف المعهود الذى لا يحتاج إلى عمل ولا مجهود .

فنحن الآن لا نسأل كما كانوا يسألون قبل خمسين سنة : هل تجوز إضاءة المساجد بالكهرباء أو لا تجوز .

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل يؤكل الطعام الذى يؤتى به من أوربة أو هو حرام على الآكلين .

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل يحل للرجل المسلم أن يرسل بابنه إلى مدرسة يتعلم فيها أن الأرض كرة وأن هذه الكرة تدور ؟

ولا نسأل كما كانوا يسألون : هل فى كبريت العلب مادة تنقض الوضوء ؟ وهل للحرير المصنوع حكم غير حكم الحرير المطبوع ؟ وهل وهل وهل إلى أشباه هذه الأسئلة التى كانت تتوالى على الإفتاء وتدل على الحالة العقلية التى كان الناس يواجهون بها مشاكل الحياة العصرية ، وهى حالة فى الحقيقة أخطر وأعضل من الأسئلة وموضوعاتها ، لأنها حالة أناس معزولين عن الحياة .

نحن لا نسأل هذه الأسئلة الآن .

ولكنهم كانوا يسألونها ويفكرون على نهجها قبل خمسين سنة ، وجهود محمد عبده فى فتاواه وأعماله ودروسه وقدوته هى الجهود الأولى التى بذلت بذل السخاء لتبديل تلك الحال وتعويد العقول أن تفكر على مثال غير ذلك المثال .

فإذا قيست عظمة محمد عبده غدًا فلا تكفى فى قياسها مؤلفاته وآثاره الكتابية ولا ينصفه المؤرخ حق إنصافه قبل استيفاء هذا الجانب من إصلاحه وجهاده .

ولهذا قلنا إن المصلحين قليلو الحظ من الإنصاف ، لأنك تعرف المؤلف بقراءة كتابه ، وتعرف القائد باسم المدائن التى فتحها والوقائع التى انتصر فيها ، وتعرف المخترع بذكر اختراعه ، والخطيب بحفظ كلمات من عيون خطبه أما المصلح فلا تعرفه إلا إذا عرفت جهاده ، ولا تعرف جهاده إلا إذا عرفت عصره فى جميع أجزائه ، وعرفت كيف كان وكيف تحول وكيف سرت روح التحول فيه ، ودون ذلك بحث وتنقيب ، وموازنة وتقليب ، وصبر يتقيه القارئ المطلع ويتقيه الباحث الأديب .

* * *

يسأل النقاد أحيانًا : أين مكان الأستاذ الإمام بين زميليه العظيمين اللذين يذكران معه كلما ذكر ، وهما جمال الدين وسعد زغلول .

والرأى عندنا أن صفة المصلح العظيم تضع الأستاذ الإمام فى موضعه الصحيح بين زميليه ، وأحدهما أستاذه والثانى إمام مريديه .

فهؤلاء الأعلام الثلاثة على اتفاقهم فى بعض الخصال - يختلفون فى أساس الاستعداد .

فجمال الدين هو الداعى العظيم .

وسعد زغلول هو الزعيم العظيم .

ومحمد عبده هو المصلح العظيم .

ولكل مهمة من هذه المهام الكبرى كفاءتها الخاصة التى لا تغنى فيها كفاءة غيرها .

فالدعوة صيحة وحركة وعمل سريع وتوهج وقدرة على التنبيه وقرع الأسماع ولفت الأنظار ، وهى لذلك أشبه بجمال الدين .

والزعامة قيادة وتوجيه وقدرة على تبادل الصلة بين الزعيم والشعب وعلى توجيه الشعب فى خدمة قضية أو إنشاء نظام من نظم الحكومة ، وهى لذلك أشبه بسعد زغلول .

والإصلاح ثقة وجلد ومزيج من روح الوعظ وروح التعليم ، وإعراض عن الشئون الدنيوية ، وإنكار للذات فى هذه الشئون ، وهو – أى الإصلاح – أشبه من أجل ذلك بالأستاذ الإمام .

وعلى توارد هذه الأسماء معًا يصعب عليك جدًّا أن تتخيل جمال الدين على رأس حكومة أو حركة شعبية كسعد زغلول .

وأن تتخيل محمدًا عبده جوّابا للآفاق مقتحمًا للأبواب تارة على الشاه وتارة على القيصر وتارة على الخاقان الأعظم ، وتارة فى العواصم من إيران إلى الهند ، ومن الهند إلى مصر ، ومن مصر إلى كل مكان يحمله إليه الركاب .

كذلك يصعب عليك جدًّا أن تتخيل سعدًا فى دار الإفتاء أو فى معهد التعليم صبورًا على الإقناع والإفهام معرضًا عن النزاع والخصام .

فبينهم من الاختلاف فى الاستعداد ما نرى من الفارق البعيد ، ولكنهم قد اتفقوا فى خدمة الشرق بجميع ما رزقوا من ملكات متقاربات أو متباعدات .

وأن الشرق بخير مادام قميناً بإنجاب هؤلاء الأبناء ، عارفاً بما قدموا من مآثر وآلاء ، مقيماً لهم على الوفاء وصدق الثناء ، وحسن الجزاء .

جمال الدين الأفغانى

نحن فى عصر المواصلات البخارية والكهربائية – وفى عصر الإذاعة والنشر بالمطبعة والبريد على تعدده ، والمذيعات على تفاوتها فى السرعة والتعميم . ففى وسع الحكيم أو الواعظ أو المعلم أن ينشر رأيه دون أن يظهر للناس بشخصه . وفى وسعه أن يتخذ له ألوف الألوف من التلاميذ دون أن يرى تلاميذه أو يتمكن التلاميذ من رؤيته ، فليس للمظاهر الشخصية ولا للجاذبية النفسية كل الشأن فى لفت الأنظار وترويج الأفكار ، وليس من الضرورى اللازب أن يكون المعلم أخاذا بسيماه نفاذا بمرآه ، فيكاد يستوى لديه ولدى الناس أن يكون مقبول الطلعة أو مشنوءها ووسيم الهيئة أو بذيئها ، وحاضر البديهة أو بطيئها ، وقوى الجاذبية أو ضعيفها ، لأنه يستطيع أن يشرح أفكاره وهو متوار عن قرائه ومريديه – فلا يكون لسماته الشخصية الشأن الأول فى النشر والإذاعة أو فى الإقناع والتأثير .

لكن الأمر لم يكن كذلك فى جميع العصور ، فإذا استغنى المعلم العصرى بعض الاستغناء عن الوجاهة والجاذبية فمعلم العصور

الغابرة لم يكن له غنى عنها فى حال من الأحوال ، ولم يكن شأنها ضعيفاً فى تقريبه من العظماء أو فى تقريب التلاميذ إليه ، فربما ارتقى مكان العالم لما عنده من الوجاهة والجاذبية حتى يبذ العلماء الذين يفضلونه فى المعرفة والثقافة ، وربما انخذل العالم ولا خاذل له إلا أنه فاتر المحضر أو ضعيف الشخصية .

ولا يندر أن يرتقى مكان الواعظ الضعيف الفاتر على قلة نصيبه من الجاذبية الأخاذة والمحضر المهيب . فلا يفهم من هذا أن العوامل الشخصية بطلت هنا كل البطلان ، واستغنى عنها الواعظ كل الاستغناء . بل الحقيقة أن هذه العوامل لا تزال فى هذه الحالة قائمة فعالة ولكنها اختلفت بعض الاختلاف ، فبدلاً من التفاف الناس بالمعلم لهيبته وسحر طبيعته أصبحوا يلتفون به للعطف عليه والعجب من ورعه أو زهده ، أو ما يلوح عليه من التواضع والاستكانة ، وهو على كل حال مدين فى شهرته للعوامل الشخصية والسمات التى يراها الناس بالأعين ويحسونها على مقربة .

وموضوع حديثنا الليلة – رجل تتلخص عظمته كلها فى كلمة أو كلمتين : الجاذبية أو من شاء فليسمها المغناطيسية الشخصية .

ذلك الرجل هو السيد جمال الدين الأفغانى ،معلم المعلمين وطليعة المعلمين فى الشرق الحديث،وباعث نهضته الحاضرة فى كثير من الأقطار .

فلولا المغناطيسية الشخصية ما كان أثر جمال الدين بالغا أشده فى فارس ومصر والهند وتركيا دون غيرها من البلدان الشرقية ، لأنها هى البلدان التى عاش فيها بشخصه واتصل فيها بتلاميذه .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كانت قوة جمال الدين بادية كلها فيمن خلفهم من المريدين لا فيما خلفه من الكتب والصفات .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين قادرًا على أن يظهر فى البلد الذى ينزل به بعد أسابيع قليلة من وصوله إليه ، مع ما نعلم من العقبات الجسام التى تحول بين الرجل وبين الظهور فى بلد غريب .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان الملوك والأمراء يقبلون من جمال الدين أن يخاطبهم فى قصورهم مخاطبة الند للند والزميل للزميل ، وما عرف عن جمال الدين قط أنه خاطب خليفة آل عثمان ولا وريث عرش القياصرة ولا شاه الشواهين ولا أمير وادى النيل إلا كما يتخاطب الأنداد والزملاء .

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين مستطيعًا أن يجوب الآفاق بغير مال ؛ لأنه كان إذا احتاج إلى المال فى رحلاته الكثيرة أمر بعض مريديه من الموسرين أن يحملوا إليه كفايته منه ، فلا يعصى له أمر ولا ترد له رغبة .

هذه المغناطيسية الشخصية كانت قوة جمال الدين الكبرى ، وكان قوامها الأكبر ثقة بالنفس لا تحدّ ، وإيمانًا بالحق لا يتزعزع .

على أن الثقة بالنفس ضروب كثيرة ، لأنها تتألف من عناصر متعددة تختلف باختلاف النفوس .

فمن الناس من يثق بنفسه لأنه غنى أو صاحب منصب ، ومنهم من يثق بنفسه لأنه مغرور لا يعرف قدره ولا يعرف أقدار من معه . ومنهم من يثق بنفسه لأن الثقة تريحه من قلق الشكوك كما يستريح النائم إلى المهاد الوثير .

وكل أولئك عناصر زائلة أو زائفة ، لا تلبث أن تصطدم بالوقائع حتى تتوارى وتتحطم ! فربما انقلب الغنى أو صاحب المنصب من صلف العزة إلى ضراعة الذلة متى صفرت يده من المال أو خلا مكانه من الجاه ، وربما خادع المغرور نفسه زمانًا فاسترسل فى اللجاج والمكابرة حتى تنبهه الحوادث فيفرغ كما يفرغ الزق المنفوخ ، ومثله فى هذا كمثل المقاتل الذى يظن أنه فى حصن حصين بين العدد والجيوش فلا يزال بخير ولا يزال مغترا بظنه حتى يهجم عليه الأعداء ، فإذا هجموا لم يغن عنه الظن ولم يجد له مناصًا من التسليم ! وهو لا يفعل ذلك لو كان له نصيب من الحصانة التى يدعيها والمنعة التى يستنيم إليها .

وكذلك الواثق بنفسه لأن الثقة تريحه من شكوكه إنما يتغافل

عن الحقيقة ولا يغفل عنها ، وإنما يعجب بالطلاء الظاهر ولا يجهل أنه طلاء ، ولكنه لقلة الحيلة يقبله كأنه معدن نفيس .

أما جمال الدين فلم تكن ثقته بنفسه من هذا القبيل ، لأنها ثقة قائمة على عناصر موروثة وفضائل مستقرة ، فلا تغيرها الطوارئ ولا هى تتغذى بالأوهام .

وكانت للثقة عند جمال الدين عناصر متجمعة من عراقة الحسب وفطرة البداوة ، ومتانة العقيدة ، وصحة التركيب ومهابة الطلعة وتعوّد الإعجاب والتبجيل من جميع من رأوه وعاشروه ، وإذا اجتمعت هذه العناصر إلى الذكاء الخارق والعلم المتفوق فهى دعائم من اليقين تزيدها الأيام شدة ، وقلما يخاف عليها الوهن والتقويض .

فصاحب الحسب أرفع نظرًا إلى قدره من المهين الذى تعود الذلة والخنوع .

وصاحب الفطرة البدوية أقل شكا وترددا فى الأمور ممن يعيشون فى الحضارة بين شعاب الرزق المتفرقة ونقائض الحياة الكثيرة .

وصاحب العقيدة المتينة أشد وثوقًا بنجاحه وصدق أمله وقرب غايته ممن لا يعتقد ولا يطمئن إلى إيمان بغاية .

وصاحب التركيب الصحيح لا يحذر على بنيته ولا على معيشته ما يحذره صاحب التركيب السقيم .

ومن ألف أن يهاب ليس كمن ألف أن يهان ، ثم يكون الذكاء نورًا يضيء للإنسان جوهره وجواهر الناس المحيطين به فيطمئن إلى قدره ولا يحفل بما يعترضه أو بمن يعترضه فى سبيله ، وهذه العناصر كلها كانت مجتمعة لجمال الدين . فأنفقت له منها ذخيرة ثقة لا تنضب ، وأفاءت على شخصه ذلك السحر الذى يسترعى له الأنظار ويجذب إليه القلوب .

بيد أن رجلا له مثل ما كان لذلك الرجل من العزة والمهابة والطموح - خليق أن يثير الحسد والعداوة حيث كان ، فيكثر حوله الأعداء كما يكثر حوله الأنصار ، ويفرط أعداؤه فى بغضه كما يفرط أصدقاؤه فى حبه ، فلا يطمع من هؤلاء ولا من هؤلاء فى اعتدال وحسن تقدير .

وهذا ما حدث فى تاريخ جمال الدين بين مبغضيه ومحبيه . فغلا أعداؤه فى التشهير به حتى أنكروا عليه كل دعوى وأرابوا الناس من أمره فى كل صفة ، فلم يكفهم أن اتهموه بادعاء الشرف والنسبة إلى النبى حتى قالوا إنه لم يولد مسلمًا وأنه غير مختون !! وزادوا فزعموا أنه أجير المستعمرين وما قضى حياته كلها إلا فى كفاح المستعمرين .

وغلا أصدقاؤه فى تقديسه حتى نسبوا إليه كل علم ، وأضافوا إليه كل مأثرة ونفوا عنه كل ملامة ، وليس أصعب من ترجمة رجل تخلص إلينا أخباره من خلال هذا الغلو فى العداء .

أو الغلو فى الإعجاب . لكننا نستطيع على الرغم من الإفراط فى قدحه ومدحه أن نجزم بحقيقة واحدة هى أم الحقائق فى شأنه ، وتلك أنه رجل عظيم . بل لعلنا لا نعرف شيئا يدل على كنه العظمة فيه كما يدل عليه هذا الغلو الشديد بين الفريقين ، فإن العظيم الحق من يغلو أصحابه فى حبه ويغلو أعداؤه فى مقته ، وقلما تقارب الناس فى وصف إنسان إلا أن يكون من الأوساط الذين يهون خطبهم على الأصحاب كما يهون خطبهم على الأعداء .

ونحن نريد هنا أن نصف الرجل ولا نريد أن نتشيع له أو عليه . فسبيلنا أن نقابل بين الأقوال وأن نغربل أخباره من هنا وهناك ونختار منها ما هو أقرب إلى المعقول وأشبه بالواقع ، ونعتمد هذه الطريقة فى استجماع صفاته وأخلاقه وملكاته وأساليبه فى أداء رسالته ، وهى رسالة يمكننا من الآن أن نلخصها فى كلمات قليلة لا تردد فيها ، فهى إنهاض العالم الإسلامى أو العالم الشرقى كله ، عن يقين من الرجل بأن هذا الإنهاض مستطاع ميسور ، بل محتوم محقق متى توافرت أسباب الدعاية .

كان جمال الدين ربعة متين البنية من أصحاب المزاج الذين يعرفون بالعصبيين الدمويين ، وكان أسمر اللون أسود العينين نافذ النظر قصيره يستعين بالنظارة ، وكان رأسه يميل إلى الكبر وجبينه يميل إلى الاتساع ، وكان خفيف العارضين مرسل الشعر

يلبس الجبة والسراويل على نحو أهل الهند فى زى العلماء خاصة .

وكان قليل الطعام يتناول وجبة واحدة ويشرب الشاى بقية اليوم ، ولاينام إلا من الغلس إلى الضحى ، وربما ترخص فى المباحات التى لم يألفها جماعة العلماء لعهده . فكان يجلس على القهوات العامة ويدخن اللفائف الإفرنجية ويعنى بانتقائها عناية شديدة ، ويقول سليم بك العنحورى فى شرح ديوان « سحر هاروت » إنه كان يتناول القليل من الكونياك . ولكن الأستاذ محمد رشيد رضا يعقب على هذا فى الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام بقوله « إن ما ذكره العنحورى من عادته فى أكله وشربه فيه الخطأ والصواب . فقد كان يأكل الوجبة ولكنه لم يكن يأكل وحده . وقد كان يكثر من شرب الشاى ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات ، فإن لم يكن ما قيل من شربه لقليل من الكونياك فرية فيحتمل أن يكون له شبهة ، كأن يكون رآه الناقد يشرب شيئا يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداويًا فظنه الناظر عادة » .

وقضى جمال الدين حياته لم يتزوج ولم يقبل ما اقترحه عليه السلطان عبد الحميد من تزويجه بإحدى جواريه الحسان ، ويلغط أعداؤه بكلام فى هذا الصدد لا بينة عليه . وقد سئل هو فقال : « إنى لو تزوجت لكان زواجى أغرب عند العارفين بحقيقة

أمرى فى مصر من ذهاب الشيخ عليش بتلاميذه إلى إحدى ملاهى الأزبكية وتعاطيهم كئوس البيرة جهرًا » وقد ذكر الشيخ رشيد ذلك للأستاذ الإمام فقال له « إنه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه إلى ما علق آماله به من عظائم الأمور » .

على أن الذى أفهمه انا من تلك العبارة أن الزواج فى نظر جمال الدين ترف لا يتاح للمصلح المتجرد للخطوب الجسام ، لأن المصلح رجل يروض نفسه على التقشف والأهبة الدائمة للنفى والاعتقال والحرمان .. فرجل مثل هذا إذا رخص لنفسه فى الزواج لا يقل فى الغرابة عن الشيخ المتحرج الذى يشرب البيرة فى قارعة الطريق . ويؤيد هذا التفسير ما سمعته أخيرا عن أديب سليل بيت معروف كان أبوه يلازم السيد جمال الدين ويحضه هذا على التفرغ للإصلاح ومصاحبته فى نشر الدعوةفيعتذر له بتكاليف الأسرة والأبوة . فحنق منه جمال الدين مرة وقال له انبذ ولدك هذا ولا تدعه يعوقك عن سبيلك .

أما صفاته النفسية فأكبرها علو الهمة وعزة القدرة والحمية ، وربما تطوحت به العزة إلى الحدة العنيفة والإصرار اللدود إذا غضب أو استغضب ، فكان فى هذه الحالة يستهين بالبطش يصيبه أو يصيب به أعداءه غير حافل بالعواقب .

وهو على أدبه فى الخطاب مع من يخاطبهم من العظماء وغير

العظماء لم يكن يرى نفسه دون أحد من الناس فى المنزلة وحقوق الكرامة ، فإذا جرى فى حديثه مع الملوك والأمراء ما يستوجب الصراحة جهر برأيه فى غير تلعثم ولا مواربة . كذلك رووا عن خطابه لقيصر الروسيا حين دار الكلام بينهما على مزايا الحكومة الدستورية ، فاعتصم القيصر بحق الملوك الإلهى واعتصم جمال الدين بحق الشعوب ... ولم يتزحزح عنه على الرغم من كدر القيصر وامتعاضه ، وكذلك جرى له حديث مع توفيق باشا فى مسألة الدستور فقال توفيق باشا إن الشعب لم يبلغ بعد مبلغ هذه الآراء التى ينصح بها السيد . فكان جواب السيد له إن الشعب المصرى فيه الخامل والجاهل وفيه العالم الضليع كسائر الشعوب ، وإن إشراكه فى الحكم منفعة للحاكمين وللمحكومين واتقاء لضرر يصيب الجميع .

وقد لاحظ عليه رئيس التشريفات فى المابين الهمايونى مرة أنه يلعب بحبات مسبحته فى حضرة السلطان ، فأجابه محتدًّا : سبحان الله ، إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليونا من الأرواح الآدمية .. أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بثلاثين حبة من الكهرمان ما يشاء ؟ !

ولما كان فى بطرسبرج زارها شاه العجم فطلب لقاءه فلم يلتفت جمال الدين إلى طلبه لأنه كان سيئ الظن به وبوزرائه ، ثم استفحل خطب هذه النقمة بعد أن تلاقيا وذهب جمال الدين

إلى فارس ثم خرج منها مغضبًا مشيعًا بالتشهير والهوان .

فلما اشتدت على الشاه حملاته ولذعاته أرسل إلى سفيره فى الآستانة ليلقى السلطان عبد الحميد ويرجوه أن يأمر جمال الدين بالكف عن تشهيره ، فكان جوابه للسلطان « إننى امتثالا لأمر الخليفة قد عفوت شاه العجم ! قد عفوت شاه العجم ! » فقال السلطان: « بحق يخاف منك شاه العجم خوفًا عظيمًا » .

وقد شك بعض من سمع هذه القصة فى صحة العبارة لأنهم ألفوا أن تتعدى « عفا » بحرف الجر ولكن تعديتها بغير الحرف ليست من الخطأ . وقد كان جمال الدين يقيم العربية فى جملة كلامه . ويميل تارة إلى اللهجة المصرية وتارة إلى لهجة الفرس المتكلمين بالعربية ، قال العلامة الجليل أحمد لطفى السيد باشا إنه زاره مع زعيم مصر سعد زغلول فى الآستانة حين ذهبا إليها فى صحبة الخديو عباس فقال السيد لسعد وقد رآه بالملابس الإفرنجية : « لقد كانت عمامتك ها القدر ! » وأشار بيديه إشارة التكبير .

ولهذه المناسبة نروى عن لطفى باشا مثلا من أمثلة الأسلوب الذى يستطرد به السيد فى دروسه العامة . فإنه يتخذ من بعض الملاحظات العارضة مناسبة يتطرق منها إلى الموضوع الذى يلائمها ثم يسترسل فيه . قال لطفى باشا : كان فى المجلس غلام

صغير مع أبيه . فجعل السيد يسأله ويكرر السؤال له وهو لا يجيبه . فالتفت السيد إلى جلسائه وسألهم : أتعلمون لماذا سكت هذا الغلام ؟ قال بعضهم : لأنه خجل . فقال السيد : ما صنعت شيئًا ... كأنك تقول إنه يخجل لأنه يخجل ، وإنما نفهم سكوته إذا فهمنا طبيعة الإنسان فى حب الكمال وخشية الظهور بالنقص . ثم مضى فى شرح هذه الطبيعة الإنسانية وما لها من علاقة بأخلاق الآحاد والجماعات .

ومن أخلاقه التى تعاب أحيانا قسوته فى العقيدة وعنفه فى اجتثاث الموانع التى تعوقه – فقد عزى إليه أنه كان من المحرضين على اضطهاد البابيين فى البلاد الفارسية ، فنالهم من جراء ذلك ضيم عظيم .

ومن لدده الشديد فى الخصومة أنه كان لا ينسى ثأرًا ولا يصفح عن إساءة ... إلا أن يعالج بما يرضى كبرياءه واعتداده بقدره ، وقد يحمد هذا الخلق إذا صاحبته الحمية فى طلب الإصلاح كما حدث فى مسألة التنباك ، ولكنه من الأخلاق المعيبة إذا أدى إلى المجازفة بحياة البرىء فى سبيل الانتقام .

فأما مسألة التنباك فخلاصتها أن بعض وزراء الفرس كانوا يبيعون مرافق البلاد للشركات الأجنبية ومنها التنباك ، فجد السيد جمال الدين فى إثارة الأمة عليهم وعلى الشاه حتى أخرجوه

كما قال فى وصف خروجه مشيرا إلى أحد الوزراء « إن ذلك اللئيم أمر بسحبى فى شدة المرض على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة ، وهذا كله بعد النهب والغارة ثم حملنى زبانيته الأوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا فى فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتنى جحفلة من الفرسان إلى خانقين » .

فلما استقر جمال الدين فى البصرة حتى وجه بخطاب نارى العبارة إلى رئيس مجتهدى الشيعة ميرزا حسن الشيرازى يستفزه غاية الاستفزاز ويدعوه إلى إحباط بيع التنباك للشركة الإنجليزية ، فأفتى رئيس المجتهدين فتواه الخطيرة بتحريم التنباك على المسلمين لأنه إسراف وضرر بالأمة ، وأطاعه الشعب فأضرب عن التدخين وفى طليعته حاشية الشاه فى قصره ، فحبط الاتفاق وفشلت سياسة الوزير .

فاللدد فى الخصومة على هذا المنوال لا عيب فيه ، ولكن جمال الدين لم يكن يقنع بهذا وأمثاله فى لدده ، فقد قيل إنه دفع برجل من فارس إلى قتل الشاه فقتله وهو يقول « بدى إيز جمال الدين » أى خذها من جمال الدين .. ويساق فى إثبات ذلك ما قيل من أن سفير العجم فى لندن قصد إليه يستميله ويعرض عليه مالا كثيرا ليسكت عن الشاه فقال له السيد « لا أرضى إلا أن يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوضع فى قبره » وقيل إنه رأى

صورة ميرزا رضا الكرمانى قاتل الشاه فى مجلة الاستراسيون وهو مصلوب معلق فهتف « علو فى الحياة وفى الممات » إلى أشباه ذلك من الروايات والأحاديث وما أسنده إليه براون وبلنت من الخطط والتحريضات .

إلا أننا نرى فى جانب هذه المرجحات شيئا آخر يميل بنا إلى الشك فى إقدام ميرزا رضا على قتل الشاه بباعث من إيعاز جمال الدين دون غيره . فإن ميرزا رضا الكرمانى كان من البابيين ، ولم يعرف عن البابيين أنهم كانوا يحبون جمال الدين ذلك الحب الذى يدفع بالمرء إلى المجازفة بحياته ، فلعل الرجل لم يقدم على قتل الشاه إلا انتقامًا لأبناء مذهبه ، ولعله لم يذكر اسم جمال الدين وهو يباغت الشاه إلا ليلقى الشبهة عليه ، أو لعله لم يذكره قط فى ذلك الموقف وإنما افترى المفترون تلك الكلمة على القاتل ليقنعوا حكومة الآستانة بتسليم جمال الدين إلى الحكومة الفارسية ، وذلك غير بعيد .

وبعد فإذا كان الخلاف فى إثبات هذه الوقائع وأمثالها وشيكًا أن يذهب بنا كل مذهب - فمما لا خلاف فيه أن الرجل كان صارمًا حديدًا فى غضبه ، وكان جريئًا مقتحمًا يقول ما يعتقد ولو أحاطت به عيون الرقباء واشتد حوله التضييق والإرهاب ، وقد عرفه أصدقاؤه بالصراحة وسلامة القلب والغيرة على الحق وازدراء الخداع والنفاق ، وكل أولئك خصلة تلازم الرجال

الأقوياء المعروفين بالصرامة والحدة المتجـردين للكفاح والإصلاح .

أما خصائص ذهنه وعناصر ثقافته فالذكاء المتوقد والعارضة القوية والبداهة النافذة ملكات تواترت بها أقوال مريديه ومعاشريه ، ولم يجرؤ أحد من أعدائه أن ينكرها عليه . قال الشيخ محمد عبده : « لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها وكل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ... تم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لين فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدًا على ذلك أنه ما خاصم أحدا إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعدما أقر له الشرقيون ، وبالجملة فإنى لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ » .

وقال أديب إسحق « ومن عجائب ذكائه أنه تعلم الفرنسوية

أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرًا فى أقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ ، إلا من علمه حروف هجائها يومين » .

وقد سرد الشيخ محمد عبده العلوم التى تخرج فيها فقال إنه « تلقى علومًا جمة برع فيها جميعها ، فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ، ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ، ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية ، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية ، ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ، ومنها نظريات الطب والتشريح : أخذ جميع تلك الفنون من أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة فى تلك البلاد - يعنى بلاد أفغان - وعلى ما فى الكتب الإسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه ، ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة ، وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سياحته واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة » .

فالرجل – كما تدلنا هذه العلوم التى سردها الأستاذ الإمام – قد تخرج على الطريقة الشرقية المعهودة فى زمنه وبلده ، واستفاد منها فوق ما يستفيد المتعلمون لأنه كان يفوقهم ذكاء وألمعية وسلامة فطرة .

على أن أديب إسحق يروى لنا « أنه كان يتتبع حركة المعارف الأوربية والمستكشفات العصرية ، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدا ، حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوربا العالية » .

وقد كان أديب إسحق من تلاميذ السيد جمال الدين ، ولكن الذى ذكره من شوقه إلى المعرفة والاطلاع يؤيده النظر فى رسالة الرد على الدهريين التى ألفها السيد فى أوائل ظهور المذهب القائل بالنشوء والارتقاء .

ففى ذلك الوقت لم يكن أحد من الشرقيين يعرف عن هذا المذهب إلا القليل .. ومع هذا عرضه السيد عرضًا حسنًا فى تلك الرسالة كما عرض غيره من المذاهب الأوربية الشائعة ، ولا يظهر النقص فى إدراك معنى للنشوء والارتقاء إلا حين يتصدى للرد على بعض أدلته كما قال مثلا فى مناقشة التطور : « على زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثًا كذلك ! فإن سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة

فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظنا وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته وأشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه .

وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال ... مع تشاركها فى المأكل والمشرب وتسابقها فى ميدان واحد نرى فيها اختلافا نوعيًّا وتباينًا بعيدًا فى الألوان والأشكال والأعمار . فما السبب فى هذا التباين والتفاوت فلا أراه يلجأ فى الجواب إلاّ إلى الحصر » .

وهكذا ظن السيد جمال الدين أن مذهبًا كمذهب النشوء والارتقاء يناقش ويفند بهذه السهولة فيعيى صاحبه عن الجواب ! وفاته هو أن الأشجار والأسماك لم توجد فى الغابات والبحيرات التى ذكرها إلا بعد أن صارت أنواعا وفصائل محدودة ، وأن الأنواع لا يكفى لتكوينها أقل من الدهور الطويلة التى تقدر بمئات الألوف وبالملايين من السنين فى حساب النشوئيين ، وأن البرغوث إن شابه الفيل فى الخرطوم المزعوم فى كتب الحيوان القديمة فليس معنى ذلك أنه من فصيلته وتركيبه

وجنسه . ولكن العذر واضح للسيد فى عزوب التفصيلات الداروينية عنه لأنها كانت يومئذ تعزب عن عقول الأوربيين المقيمين مع داروين فى بلد واحد وبيئة علمية واحدة .

فمن العجيب أن هذا الرجل الذى حسب داروين من الماديين المعطلين – وهو ليس منهم – قد كان هو نفسه متهما بالمادية فى نظر الجامدين والمغرضين ، فزعموا أنه ملحد ينكر وجود الله والرسالات النبوية ولا يؤمن بالبعث والنشور ، وليس فى تاريخ الرجل ولا فى كلامه ولا فى أعماله دليل ولا شبه دليل يثبت عليه الإلحاد والتعطيل .

ولكنه كان متصوفا ينزع فى فهم الدين منزعا لا يقره الجامدون ، وكان عظيم المنزلة فى النفوس وهم ينفسون عليه تلك المنزلة ولا يعرفون بابا يهجمون عليه غير باب الدين .

وكان يصطنع المجاز أحيانا فى التعبير فيجدون فى ثنايا كلامه ما يتوسعون فى تأويله وتشويهه حتى يخرجوه مخرج الكفر والإنكار ، فمن ذلك أنه قال مرة فى الآستانة : « إننى أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة » فثارت عليه ثائرة أعدائه وقالوا إنه ينكر مناسك الحج أو يسخر بها فى هذه العبارة .

وشبه المعيشة الإنسانية مرة أخرى ببدن حى ، وقال : « إن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدى من المنفعة فى المعيشة

ما يؤديه العضو فى البدن ولا حياة لجسم إلا بروح ، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة ، ولكن يفرق بينهما أن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء . أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات » .

فلما سمع رسل شيخ الإسلام فى الآستانة هذه الخطبة ذهبوا يقولون إن جمال الدين ينكر النبوة ويجعلها صناعة من الصناعات ! وأوعز شيخ الإسلام إلى أتباعه فى المساجد أن يتولوا كلام السيد بالتشهير والتفنيد ففعلوا ، واحتدم السيد غضبًا وملكته حدته المعهودة فأبى إلا أن يحاكم شيخ الإسلام ويعاقب ! فكبرت المسألة وتفاقمت وانتهت باضطرار الصدر الأعظم إلى إجلاء السيد عن الآستانة .

تلك أمثلة من شبهاتهم فى عقيدة جمال الدين ، وهى كما ترى لا تثبت عليه شيئًا مما زعموه ، وإنما تثبت عليهم الحسد والضغينة ، وليس فى جميع ما سمعناه وقرأناه عنه ما يمس عقيدته وإيمانه بشعائر دينه ، فقد كان يؤدى من الفرائض ما يؤديه المسلم الحنفى على مذهب أبى حنيفة ، مع الاجتهاد والتصوف الذى يجنح إليه فقيه مستقل متصوف ، وليس التصوف بغريب من رجل نشأ بين الهند وفارس وعاش طول حياته يتقلب فى الآفاق ويقنع بمعيشة النساك .

وصفوة القول فى مكانة هذا الرجل العظيم وحصته من الثقافة والمعرفة أنه كان داعية من أكبر دعاة الإصلاح بين المسلمين فى التاريخ الحديث أو التاريخ القديم وأنه خرج إلى الدنيا مزودًا بألزم ما يحتاج إليه الدعاة المصلحون من زاد العقل والخلق، فتمت له أداة الدعاية من شتى الوجوه.

تعلم الفنون القديمة وأضاف إليها كل ما تسنى له الاطلاع عليه فى اللغات التى كان يعرفها، وهى الفارسية والعربية والتركية والهندية والإنجليزية والفرنسية، فاجتمع له حظ من العلم الغزير يزداد غزارة وإثمارًا فى لب خصيب مثل لبه وبداهة مشرقة مثل بداهته، ثم طوّف فى البلاد وسبر أغوار الرجال والأمم فاستوفى من معرفة الدرس ومعرفة الخبرة ما ليس يتاح إلا للأفذاذ القليلين.

وانطبعت نفسه على الشجاعة والطموح والثقة بالنفس وعلو الهمة عن الصغائر وعزوف البداوة عن الترف والنعمة فهانت لديه العقبات واستخف بالكوارث وسهل عليه التمرد وتأهب للثورة على الجمود حيثما اصطدم بالجمود والجامدين، قال روشفور: « لقد حبب إلىّ هذا الرجل الذى يشبه الأنبياء ما يحبب إلى كل متمرد ثائر » وهذا الذى حبب جمال الدين إلى روشفور هو الذى حبب المتمردين إلى جمال الدين، حتى كان من أشد أنصار المتمهدى السودانى محمد أحمد لأنه قد أنكر

ما أنكر من مظالم زمانه ونفاق علماء عصره .

واستجابت لجمال الدين كل وسائل المغناطيسية أو التأثير الشخصى من ذلاقة اللسان ومهابة المحيا وقوة الإقناع . فغلبت فيه الوسائل الخطابية على الوسائل الفلسفية أو العلمية ، فهو خطيب مؤثر قبل كل شىء ، يتكلم فيسحر سامعيه فإذا أراد أن يكتب أملى على تلاميذه فى لهجة خطابية ملتهبة .. فكأنما هو يتكلم ولا يكتب . وربما كان فى هذا بعض التعليل لندرة تواليفه على سعة علمه ، فليس بين أيدينا من كتبه غير رسالة فى تاريخ الأفغان ورسالة فى الرد على الدهريين ومقالة فى القضاء والقدر ، ويقول ولسن فى تاريخ الحركات الفكرية بين المسلمين : إنه ألف رسالة فى الخلافة ولكنها صودرت ولم تظهر . وهو فى معظم ما ألف أقرب إلى الخطيب منه إلى الكاتب الفيلسوف ، وكان ليقينه من أثر الإقناع الشخصى يعتمد على الأساليب الخطابية فى لفت الأنظار كما كان يعتمد عليها فى المساجلة والمناقشة : روى الزعيم التترى عبد الرشيد أفندى الذى صحب جمال الدين كثيرًا فى البلاد الروسية أنه شهد معه التمثيل فى دار الأوبرا القيصرية والقيصر والأمراء ورجال الدولة حاضرون ، فلما اتسقت الدار بمن فيها وقف جمال الدين فى مقصورته واستقبل القبلة وطفق يصلى فى غير أوان الصلاة فالتفت إليه الناس وانصرفوا عن التمثيل وعن القيصر والأمراء ، وجاء رسول القيصر يستفسر

- فلم يكترث له ولم يقطع صلاته حتى شاء أن يفرغ منها ، فلما أقبل عليه عبد الرشيد أفندى دهشًا متذمرًا من هذه المخاطرة المزعجة المخيفة فأجابه بما معناه أن هذه الحركة منه أفعل فى تنبيه الأذهان إلى قضية الإسلام والمسلمين فى البلاد الروسية من كتابة الكتاب وبلاغة البلغاء ، وقد يرى بعض المعاصرين أنها أساليب مسرحية تعرض صاحبها للسخرية فى عصرنا الحديث ، ولكنها ولا ريب كانت من خير أساليب الدعاية فى عرف الأقدمين ومن نشأ على نشأتهم بين الشرقيين ، فما كان يتحرج منها أصلح الصالحين ولا أشرف المصلحين .

وقد يحمد من جمال الدين فى باب الدعاية وأدواتها الشخصية ما ليس يحمد من الباحث الفيلسوف ، فقد يعسر على فيلسوف يعرف بواعث النهوض فى الأمم ويقدر دواعيها المتشابكة وموانعها الدقيقة أن يطمع فى خلق جامعة إسلامية بالإقناع والإيحاء فى مدى عشر سنوات أو عشرين سنة من مجهود رجل واحد ، أما جمال الدين فكان يؤمن هذا الإيمان أو كان يؤمن – على الأقل – بأن قيام دولة واحدة إسلامية فى قوة الدول الأوربية الكبرى مطلب ميسور لمثله فى حياته ، وإذا عارضه الشيخ محمد عبده وقال له إن الوصول إلى هذا المطلب إنما يكون بتعليم طبقة بعد طبقة من المصلحين يتولون تحقيقه مع الأيام غضب منه وقال له : « بل أنت من المثبطين » وإنا نحمد هذا

الإيمان من جمال الدين ولا نحمده من الفلاسفة الباحثين لأنه أدعى إلى إذكاء حميته واستجاشة عزمه ، والحمية والعزم أنفع لدعاة الإصلاح بالمؤثرات الشخصية من طول البحث والتعمق فى التفكير .

* * *

تكلمنا عن صفات جمال الدين وكنه ثقافته ولم نتكلم إلا قليلا عن ترجمته ووقائع حياته .

وقد تعمدت ذلك لسببين :

أولهما : اعتقادى أن حياة الرجل العظيم هى التى تعنينا قبل وقائع حياته ، إذ كانت وقائع الحياة وسيلة تؤدى بنا إلى استكناه حياته ، ونفسه ، وليست هى بالغاية المقصودة فى صميمها .

والسبب الثانى : أن الإحاطة بدقائق السيرة فى هذا الصدد من أشق الأمور على المؤرخ الباحث ، لأن ترجمة جمال الدين تنقسم إلى قسمين هما سيرته فى نشأته الأولى وسيرته فى أخريات أيامه : ففى الأولى تقل المعلومات جدًّا حتى يكاد لا يوجد منها بين أيدينا إلا ما تلقاه المريدون عن السيد فى عرض الحديث ، وفى الثانية تستفيض المعلومات جدًّا حتى تتعذر الإحاطة بها فى محاضرة واحدة .

فسبيلنا إذن أن نجتزئ بالضرورى الذى لا غنى عنه ونترك التطويل لموضعه من المطولات .

يبدأ الخلاف فى شأن جمال الدين من ساعة ميلاده .

فأناس - وهو منهم - يقولون إنه مولود فى بلاد الأفغان ، وروى لى من يوثق به نقلا عمن لقى السيد فى البصرة بعد خروجه من إيران أنه سئل : أأفغانى هو أم إيرانى ؟ فنفر للسؤال وقال بل أنا أفغانى . ولكنها حكومة الشاه تلفق نسبتى إلى إيران لكى تتسنى لها المطالبة بتسليمى إليها إذا بدا لها ذلك .

وأناس آخرون - ومنهم تلميذه - عبد الرشيد أفندى ، يقولون إنه مولود فى إقليم همذان من البلاد الفارسية .

وغيرهما يقول إن أبويه فارسيان ولكنه ولد فى بلاد الأفغان .

ويسأل السائل : ما بال الرجل يخفى مولده وينتسب إلى غير وطنه ؟ فيجيب الأستاذ براون : إنه فعل ذلك لينفى عنه مذهب الشيعة ويدخل فى عداد المسلمين السنيين ، لأنه قدر أن إصلاح المسلمين أيسر لمن كان يدين بالمذهب الغالب على الأمم الإسلامية .

بيد أن الأمير شكيب أرسلان يقول فى شرحه لكتاب حاضر العالم الإسلامى :

« لقد لقيت فى المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسينًا أحد ولاة الأفغانستان ومن سادات كنز المشار إليهم وأفاضلهم ، وعلمت منه أن السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم ، كما أنى سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الأفغانية

وسفرائها الذين جمعتنا بهم التقارير فى أوربا بعد تأسيس سفارتهم بها » .

وهذه الرواية مع رواية السيد نفسه ورواية تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده سند متين فى صحة انتساب جمال الدين إلى بلاد الأفغان ، ولا ترد الشبهة عليها إلا من ناحية واحدة : وهى أن الناس يفخرون بانتساب العظماء إلى أوطانهم ، فلا عجب أن يقبل الأفغانيون فخرًا ينالهم بانتماء عظيم كجمال الدين إليهم . إذ ليس بالسهل على الأفغانى أن يجرد وطنه من فخر زعيم جليل ملأ ذكره الخافقين ، فإن وجب أن نلتفت إلى هذه الشبهة فيجب علينا أن نذكر - مع الالتفات إليها - أنها شبهة ظنية لا تنهض فى وجه ذلك السند المتين .

ومن ثم نرجح أكبر الترجيح أن السيد جمال الدين ولد فى الأفغان . وقد علمنا من روايته وروايات تلاميذه أنه « هو السيد جمال الدين بن السيد صفر من بيت عظيم فى بلاد الأفغان ينتهى نسبه إلى السيد على الترمذى المحدث المشهور ويرتقى إلى الحسين بن على » وأن آل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم فى « خطة كنز » من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ، ولهذه العشيرة منزلة علية فى قلوب الأفغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف ، وكانت لها سيادة على جزء من الأرض الأفغانية تستقل بالحكم فيها سلبها إياه الأمير دوست محمد خان .

وقد ولد فى سنة ١٢٥٤ هـ الموافقة لسنة ١٨٣٩ م ودرس بين الخامسة والعاشرة فى وطنه ثم درس بعد العاشرة فى أماكن شتى من فارس وأفغان وأتم دروسه الشخصية فى نحو الثامنة عشرة فبرح بلاده إلى الهند لتحصيل بعض العلوم العصورية ، ثم قصد إلى الحج فوافى مكة ١٢٧٣ هـ الموافقة ١٨٥٧ م وعاد منها إلى أفغان فخاض فى معترك النزاع بين الأمراء على عرش البلاد وبلغ منصب الصدارة فى عهد الأمير محمد أعظم ثم انهزم محمد أعظم فهجر جمال الدين بلاده مستأذناً فى الحج مرة أخرى عن طريق الهند فاستقبلته الحكومة الهندية استقبالا حسنا ولكنها حالت بينه وبين الاتصال بالعلماء والمفكرين .

ومن الهند قصد إلى مصر وهو لا ينوى أن يطيل المقام فيها .

ثم عدل عن الحج وقصد إلى القسطنطينية فلم يلبث أن أخذ فى الدعاية لتعزيز مقصده الأكبر من إصلاح الدول الإسلامية ، فعظمت مكانته والتف به التلاميد والأنصار من جميع الطوائف ، وكان ذلك سبب الغارة التى شنها عليه الجامدون والحاسدون من أدعياء العلم والرئاسة الدينية ، فرجع إلى القاهرة محنقاً فى الثانى والعشرين من شهر مارس ١٨٧١ .

وكان على نية السفر من مصر بعد فترة وجيزة لولا أن استبقاه رياض باشا وأجرى عليه مرتبا شهريا عشرة جنيهات مصرية ، وما لبث - كدأبه فى كل مكان - أن خاض غمار

السياسة واشترك فى الحوادث التى أفضت إلى خلع الخديو إسماعيل ثم فى الحوادث التى أفضت إلى الثورة العرابية ، فنفته الحكومة فى ١٨٧٩ وخرج من مصر غاضبًا لا يملك زاد سفره ولما عرضوا عليه المال رفضه وقال لهم « بل تبقون المال لكم ، إن الأسد لا يعدم فريسته أنى ذهب » .

وفى هذه الفترة تلقى عليه العلم والدعاية السياسية كثير من خيرة الأدباء فى تلك الأيام ، أعظمهم وأبقاهم أثرًا وأجدرهم بالزعامة بعده الأستاذ الإمام محمد عبده رأس النهضة الإصلاحية فى مصر الحديثة .

ذهب جمال الدين من مصر إلى الهند لا يصحبه غير تلميذه الفارسى الوفى أبو تراب ، فأقام فى حيدر أباد زمنًا وألف فيها رسالة الرد على الدهريين باللغة الفارسية ، وقد اعتقلته الحكومة الهندية فى خلال الثورة العرابية مخافة أن يشترك فيها بوثبة من وثباته ، ثم أفرجت عنه بعد خمود الثورة فبرح الهند إلى لندن حيث قضى أيامًا قليلة وسافر منها إلى باريس .

هذه هى أشهر الروايات عن رحلته إلى الهند فى هذه المرة ، لكن ولسن صاحب كتاب الحركات العصرية بين المسلمين يروى أن جمال الدين سافر فى أثناء ذلك إلى أمريكا على نية التجنس بالجنسية الأمريكية ، ولا يدعم روايته بسند صحيح أو خبر مأثور ، بل يقول بلنت – وهو من أصحاب جمال الدين – إنه قد

أطال البحث فى استكشاف هذه الرحلة المزعومة فلم يظفر بطائل .

ولم تمض على جمال الدين أيام فى باريس حتى شرع فى الدعاية لقضيته المحبوبة ، ودخل فى حوار مع الفيلسوف رينان حول الإسلام والعلم واستعداد الإسلام لإصلاح المتمدينين بعقائده . ثم استقدم إليه الشيخ محمد عبده فى سنة ١٨٨٤ وكان منفيًّا بالديار السورية فى أعقاب الثورة العرابية ، فوافاه بباريس وشرعا معًا فى إصدار صحيفة « العروة الوثقى » فحالت الدول الأوربية دون وصولها إلى الأمم الشرقية واضطرا إلى إغلاقها ولما تكمل لها سنة واحدة ، فكان كل ما ظهر منها ثمانية عشر عددًا بين ١٣ مارس ١٨٨٤ و ١٦ أكتوبر من تلك السنة . ولكنها على الرغم من منعها وقصر أيامها قد أثارت فى العالم الإسلامى ثائرة النقمة واليقظة فحسبت لها الدول الأوربية حسابها . وبرح باريس بعد فشل الصحيفة إلى موسكو وبطرسبرج يبتغى الإصلاح من ناحية الروسيا بعد أن يئس من الدول الغربية فمكث فيها أربع سنوات يكتب ويخطب ويسفر لدى القيصر فى الترفيه عن المسلمين والسماح لهم بطبع المصحف وإقامة الشعائر الإسلامية . ثم لقيه الشاه ناصر الدين فى مونيخ فألح عليه إلحاحًا شديدًا حتى أقنعه بالسفر إلى طهران ، وأسند إليه منصب الوزراة ،

ويقال إنها المرة الثانية التي تولى فيها منصبًا فى الوزارة الفارسية .

ولكن الإصلاح الذى لا يغفل عنه طرقة عين جر عليه هنا المنافسة والعداء كما جرها عليه فى كل مكان ، فانتهى الأمر إلى إخراجه على الصورة التى وصفها فيما تقدم ، ولم يغادرها حتى كان قد بث دعايته فى نفوس عدد كبير من التلاميذ والأتباع : منهم اثنا عشر كان لهم شأن مذكور فى الحركة الفارسية بعد ذلك .

وصل جمال الدين إلى البصرة فى أواخر سنة ١٨٩٠ أو أوائل سنة ١٨٩١ ، ولم يمكث فيها إلا ريثما تماثل للشفاء مما أصابه فى طريق منفاه وهو محموم مغموم ، ثم شخص إلى لندن حيث وافته الرسل من السلطان عبد الحميد يدعونه إلى القسطنطينية فأجاب الدعوة سنة ١٨٩٢ ولقيه السلطان لقاء جميلا وعامله فى مقابلاته كأنه من الأقران والأنداد ، وربما كان الفضل الأعظم فى هذه المعاملة لجمال الدين لما استقر فى خليقته من العزة والنخوة ، فما كان ليقبل من عبد الحميد أو من غيره منزلة دون هذه المنزلة ، حتى قيل إنه حجب عن السلطان فى أول قدومه مرتين بأعذار طارئة فأبى أن يذهب إلى المابين فى المرة الثالثة ، وقال « لن أعود » ..

وأصر على إبائه فلم يعدل عنه إلا بعد رجاء واعتذار .

وبقى فى الآستانة معززًا فى معظم الأوقات مراقبًا فى جميع

الأوقات حتى أدركه أجله سنة ١٨٩٧ ولما يبلغ الستين .

وقد اختلفت الأقوال فى موته كما اختلفت فى ميلاده ، فأناس يقولون إنه مات بالسرطان ، وأناس غيرهم يقولون إنه مات مسمومًا بدسيسة من السلطان ، وأنه لما ظهر المرض فى فكه أبى السلطان أن يجرى العملية له أحد غير طبيبه الخاص قمبور زاده اسكندر باشا ، ورآه الدكتور لاردى - وهو لا يزال حيًّا مقيمًا بجنيف كما يقول الأمير شكيب أرسلان - فوجد أن العملية لم تجر على وجهها ، لم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وروى الأمير شكيب أنه سمع من بعض العارفين بقبمور زاده اسكندر باشا أن الرجل أطهر وأشرف من أن يرتكب هذه الدناءة ، « ولكن كان رجل عراقى اسمه جارح طبيب أسنان يتردد كثيرًا على جمال الدين ويعاين له أسنانه وكانت نظارة الضابطة قد استمالته بالدراهم وجعلته جاسوسًا على المترجم ... ولم يمض عدة أشهر على حادث الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح .. » .

ولسنا نستغرب أن تجنى الدسائس الحميدية على المصلح الكبير تلك الجناية الخبيثة بعدما خامر عبد الحميد من الشك فيه والتوجس منه ، إذ ليست هى أولى الجنايات ولا آخرها فى ذلك العهد الموبوء ، فإن صح أنه لقى حتفه بالسم أو بالجراثيم فقد نجح عبد الحميد فى قتله ، ولكنه لم ينجح فى قتل أفكاره وكبح

مساعيه ومنع رسالته الجليلة أن تعم أمم الشرق قاطبة ، وفى طليعتها تركيا الحديثة .

ولئن عوجل الرجل بالموت قبل أوانه فلقد أدى الأمانة كما ينبغى وفوق ما ينبغى ، وقام برسالة تنوء بها كواهل المئات من أفذاذ العظماء ، فلا نعرف فى عالم الإصلاح رجلاً شرقيًّا أو غربيًّا ، قديمًا أو حديثًا ، قام بأجل وأهول مما قام به جمال الدين فى مدى هذه الفترة الوجيزة ، وأى رسالة أجل وأهول من رسالة رجل فرد يرتبط تاريخه بتاريخ كل انقلاب فى مصر وفارس وتركيا والهند وأمم أخرى يتغلغل فيها أثره ولا يبرز هذا البروز ؟ فلم تنهض أمة لدفع الظلم وحماية الحق إلا كانت دعوة جمال الدين فى مقدمة البواعث التى حفزتها للنهضة ونفخت فيها روح البأس والشجاعة ، ولا نظن أن فى مصر أو فى بلاد الشرق الإسلامى رجلاً واحدًا مشتغلاً بالثقافة فى مناحيها المتفرقة إلا وهو مدين بشىء من حريته أو بشىء من تفكيره لهذه القوة السماوية المفرغة فى قالب إنسان ، وإنى لأتحدث بهذا عن معرفة صميمة هى معرفة المرء بنفسه ومعرفته بأبناء جيله .

وأود فى هذه المناسبة أن أصحح خطأ قد يتعلق بى فى سياق الكلام عن هذا الجبار النادر المثال ، وأعنى به خطأ الدكتور شارل أدامس الذى ألف كتابًا خاصًّا فى العلاقة بين الشيخ محمد

عبده وجمال الدين من جهة والعلاقة بين محمد عبده واللاحقين به من جهة أخرى .

فإن الدكتور أدامس يقول فى تاريخ الجيل المعاصر من المحدثين : « إن تأثير محمد عبده المباشر فيما يتعلق بعباس العقاد وإبراهيم المازنى ربما كان أبعد احتمالاً من تأثيره فيما يتعلق بهيكل ، لقلة الصلة الشخصية وروابط المعرفة بينهما وبين جماعة الشيخ محمد عبده ، وقد كان العقاد صديقًا لسعد باشا زغلول . ولكن فى خلال السنوات الأخيرة التى أصبح للسياسة فيها المكان الأول فى تاريخ سعد » إلى آخر ما قال فى هذا الباب .

والصحيح أننى أتصل بجمال الدين من ثلاث جهات لا من جهة واحدة .

فقد حضرت دروس الأدب على تلميذه الشيخ أحمد الجداوى العالم الأسوانى الأديب ، ورأيت الشيخ محمد عبده فى مجلسه ولما أتجاوز الدراسة الابتدائية .

ثم لقيت الشيخ محمد عبده وعنيت بعد لقائه بقراءة ما اتفق لى من تفسيره ومن مقالاته وفصوله : قدمنى إليه أستاذى الشيخ فخر الدين محمد فأفسح صدره لمناقشتى وقال للشيخ فخر بعد اطلاعه على طرف من موضوعاتى الإنشائية : « ما أجدر هذا أن يكون كاتبًا بعد » وقد كتبت هذا فى مقال لى عن سعد رحمه الله منشور بمجلة الهلال ، وأحسب أن توقيرى للشيخ محمد عبده بل

إعجابى به هو الذى جعلنى من أنصار الاستقلال المصرى ولم يجعلنى من أنصار السيادة العثمانية التى كانت مذهبًا شائعًا بين لداتى من التلاميذ فى عهد مصطفى كامل ومن نحا نحوه فى الوطنية ، وهو الذى جعلنى من أنصار سعد قبل أن يتقدم للزعامة بأكثر من عشر سنوات ، كما أحسب أن كلمة الشيخ محمد عبده فى تشجيعى واستحسان موضوعاتى الإنشائية قد كان لها أثر غير ضعيف فى توجيهى إلى الحياة الأدبية .

أما الجهة الثالثة التى تصلنى بجمال الدين فهى جهة سعد وريثه فى زعامة الوطنية المصرية غير مدافع .

ولقد آثرت تصحيح هذا الخطأ هنا لأسباب عدة : منها أن الأمر يعنينى فى سياق الكلام عن جمال الدين ، فأنا المطالب ببيانه ، وهذا موضع الكلام فيه .

ومنها الوفاء بحق لذلك الرجل العظيم يفرض علىَّ الاعتراف به فى مناسبة من المناسبات ، وليس أفضل من هذه المناسبة ولا أجدر من أن تكون محاضرتى عنه تذكارًا مقصودًا وحصة من واجبى له وحقه على .

ومنها بيان حقيقة جوهرية تزيدنا تعريفًا بمسالك العظمة فى الإصلاح على بعد المسافة وافتراق الطرق ، فمن ذا الذى يخطر له أن فيما أكتب وفيما أعالج من أدب وسياسة قبسًا مقدوحًا من فكر جمال الدين ؟ إن من لا يعلم ذلك بالسماع لا يعلمه

بالاستدلال ، ومن هنا سلكت العظمة هذا المسلك بين أفغان وأسوان وبين الجامعة الإسلامية والوطنية المصرية والدعوة الأدبية الإنسانية . فكأنما العظيم بحر يرسل السحب المرويات فتنبت الثمر في مناكب الأرض حيث لا تقع عين على البحر ولا يتردد له اسم في الأسماع ، وليس بين بحار العظمة والإصلاح بحر أحفل بالسحب ولا أبعد إزجاء لها من الجهات الأربع من بحر جمال الدين .

حب الكذب

نحن اليوم فى العاشر من شهر أبريل . لا يزال الكثيرون منا يذكرون أوله بما جاز عليهم ، أو بما أجازوه على غيرهم ، من الدعابات والأفانين ، ولا يزالون يسألون : لم كان أبريل شهرًا يفتتح بالكذب وهو الشهر الذى اشتهر من قديم الأزمنة بافتتاح الربيع وازدهار موسم الحب والحياة والجمال ؟ أهو رمز غير مقصود يقول به الناس للناس : إنها كلها أكاذيب وأحابيل ؟ أو كما قال سليمان الحكيم : كلها باطل الأباطيل ؟

أما أصل هذه العادة فالأقوال فيه أكثر من أن نحصيها فى هذا المقام ، فقد يرجع بعضهم بها إلى رومة القديمة . ويرجع بعضهم بها إلى الهند القديمة ، وكلهم فى الصدق أو فى الكذب سواء .

وليس مما يعنينا هنا أن نفصل بين الصادقين منهم والكاذبين ، فالنتيجة التى لا خلاف فيها أن أصحاب هذه العادة يكذبون فى أول شهر أبريل ، وموضع العجب هنا من جانب علم النفس لا من جانب علم التاريخ . فإذا سأل سائل : متى تعود الناس الكذب فى أول هذا الشهر ؟ فالتاريخ هنا لا يغنينا عن سؤال آخر هو أحق بالتأمل والعناية وهو : لماذا يبحثون عن فرصة

يكذبون فيها ؟ ولماذا يرحبون بهذه الفرصة ويستمرون على الترحيب بها بعد أن عثروا عليها ؟ لماذا لم يتفقوا من قديم الزمن على يوم يصدقون فيه ؟

هذه مسألة نفسية أحق بالبحث من المسألة التاريخية فى هذا الموضوع ، وخلاصتها أن الكذب هو مخالفة الواقع بالكلام أو بالفعال ، وأن الناس لا يحبون الواقع فى كثير من الأحوال . بل يحبون الخروج منه ولو فى بعض هذه الأحوال .

والإنسان لا يخرج من الواقع بكلامه وكفى . بل يخرج من الواقع بحسه وخياله ، كلما أتيحت له فرصة الخروج مما هو فيه .

الرجل الذى يحلم بالسعادة والقوة يخرج من الواقع ويصور الدنيا لنفسه على غير صورتها المشهودة .

والرجل الذى يتخيل الأعاجيب ويخترع نوادر الأبطال يخرج من الواقع الصغير فى نظره ، إلى عالم هو أحق عنده بالتعظيم والإعجاب .

والرجل الذى يتفنن فى تصوير الجمال يخرج من واقعه الذى تراه عيناه أو تراه عيون الناس ، ويدخل فى عالم من عوالم أول أبريل ، سواء ذكرنا فيه الكذب أو ذكرنا فيه البهجة والحب والربيع .

والرجل الذى يعاقر الخمر أو يتعاطى السموم المخدرة يخرج من عالم الواقع وإن اختار مفارقته من طريق عوجاء .

والرجل الذى يعرض عن الدنيا ويقبل على المثل العليا ينفض عنه أثقال الواقع أو يفارقه من طريق قويم .

وقد وصف « بيرون » الأكذوبة وصفًا صادقًا قال : « إنها هى الحقيقة متنكرة فى مرقص البراقع أو معرض المساخر » ... وهو وصف يصدق على الأكذوبة الفنية كثيرًا ، ولكنه لا يصدق دائما على غيرها من الأكاذيب .

وخلاصة هذا كله أن الكذب باب من أبواب الخروج من الواقع يطرقه الناس للمتعة الفنية والراحة النفسية ، قبل أن يطرقوه لضرورات المصلحة وبواعث الرغبة والرهبة ، ولولا أنه يفتح للناس أحيانًا بابًا يفارقون منه واقعهم الذى لا يستريحون إليه ، لما كانت له هذه الغواية فى أول أبريل ، ولا فى سائر الأيام والسنين .

وأخطر الأكاذيب فى الدنيا ظن الناس أن الكذب لا ينجم بينهم إلا لضرورة من ضرورات المنفعة دون غيرها ، وهى ضرورة الخوف من الخطر والعقاب وضرورة الرغبة فى الثواب أو الخير والثناء . فإن الناس يكذبون حين لا يخافون ولا يرغبون ، أو يكذبون كراهية للواقع وحبًّا للخروج منه ، سواء من باب المقال أو من باب الأعمال .

ومن أخطر الأكاذيب أيضًا ظن الناس أن الأطفال لا يكذبون ولا يخافون الحقيقة . فيصدقون الأطفال فى كل

ما يقولون ويترتب على هذا التصديق ضرر جسيم ووقيعة بين الكبار من جراء إصغائهم إلى أولئك الصغار ، لأنهم أبرياء لا يحسنون الاختراع ولا يعرفون المصلحة فى إنكارهم لما أبصروه أو سمعوه .

والواقع أن الطفل يكذب لأسباب كثيرة غير الأسباب التى تلجئ الكبار إلى الكذب :

يكذب لأنه لا يحسن رؤية الحقيقة وفهمها ، ويكذب لأنه لا يحسن تذكرها ونقلها والتعبير عنها ، ويكذب لأن تضليله عن الحقيقة أسهل وأسرع من تضليل الكبار ، ويكذب لجهله بالعواقب والتبعات .

ثم هو يكذب لسبب آخر أقوى وأعمق من جميع هذه الأسباب ، وهو تجربة الملكة الجديدة التى خلقت له ولا يزال فى شوق إلى استخدامها ، كما يشتاق كل منا إلى استخدام كل جديد يقع له وكل أداة لم يسبق له عهد باستخدامها .

فالطفل يحاول الكذب كما يحاول المشى على قدميه . وكلاهما حركة جديدة يحاول أن يستمتع بها ويتدرب عليها . فتلك حركة ذهنية وهذه حركة جسدية ، وهو من أجل هذا يحب أن يخترع الأقاصيص لو استطاع ، كما يحب أن يستمع إلى الأقاصيص ، ولاسيا أقاصيص الخيال .

* * *

هذه على الجملة هى الأكذوبة الفنية ، وهذه خلاصة أسبابها وتفسيراتها .

والخلق الإنسانى لا يضيق ذرعًا بهذه الأكاذيب الفنية ولا يبالغ فى الحجر عليها . لأنها لا تضر ولا تؤذى أحدا من قائليها أو المستمعين إليها ، وقد تفيد بعض الفائدة – أو كثيرًا من الفائدة – إذا دفعتنا إلى تبديل الواقع الكريه ، وحفزتنا إلى طلب التحسين والتجميل ، كلما كان الواقع مستحقًا للتبديل .

أما الأكذوبة التى يضيق بها الأدب الإنسانى كلما ارتقى وتقدم فى طريق الكمال . فهى الأكذوبة التى تمتزج بسوء النية وحب الإضرار بالناس . وهذه هى الأكذوبة التى تنكرها الآداب وتحرمها الشرائع والأديان .

هذه الأكذوبة رذيلة خالية من كل حسنة تزكيها حتى حسنة البراعة فى اختراعها . لأن البراعة فى اختراعها من عمل الذكاء لا من عمل الأكذوبة أو الخديعة . فالذكاء هو المحمود على كل حال ، وليس الحمد للكذب أو للخداع .

يقول الأديب الإنجليزى صمويل بتلر : « كل مغفل قادر على أن يخبر بالحق . ولكن لابد للرجل من نصيب من الفطنة ليحسن الإخبار بالكذب .. » .

وهو قول حق إذا أريد به النقل الآلى والمناظر المحسوسة ، ولكن فى هذه الحالة يمكن أن يقال إن المصورة الشمسية تتقن

النقل الآلى إتقانًا لا يستطيعه أبرع الكاذبين ، وكذلك يتقنه ناقل الصوت أو أداة المذياع .

أما إذا أريد بالصدق قدرته النفسية فليس الصدق إذن من السهولة بحيث يتوهم ذلك الأديب . لأن الصدق هنا أصعب من الكذب بكثير : أصعب من الكذب سواء من ناحية الفهم أو من ناحية الشعور أو من ناحية الإرادة والعزيمة والأخلاق . فليس أصعب من فهم الأشياء على حقيقتها والنفاذ إلى لبابها والتجاوز عن قشورها ، وليس أصعب من رياضة النفس على قولة الحق وهى تضير صاحبها أو تثير عليه سامعيه ، أو تغضب عليه ذوى البأس والسلطان ... هنا لا يمكن أن يقال كما قال صمويل بتلر « إنه ما من مغفل إلا وهو قادر على أن يخبر بالحق » بل كل ما يمكن أن يقال إن الإخبار بالحق لا يستطيعه إلا أولو العزم من الناس ، وأن الكذب هنا سهل بالغ فى السهولة ، ولكن لابد للرجل من نصيب وافر من قوة العارضة وقوة الجنان ليخبر بالحقيقة التى يتجافاها الضعفاء .

* * *

اتفق الناس على يوم يكذبون فيه ولم يتفقوا على يوم يلتزمون فيه الصدق ولا يفوهون بما ينقضه أو يخفيه . لأن الاتفاق على الكذب أسهل من الاتفاق على الصدق ، خلافًا لما قال ذلك الأديب .

ولكننا نود أن نتخيل يومًا يتفقون فيه على الصدق الذى يكتمونه فى سائر الأيام . ثم يعقدون المقارنة بين جرائر ذلك اليوم وجرائر أول أبريل ... فأى اليومين يظفر بالرضا وحسن الأحدوثة ؟ وأيها يتفقون بعد ذلك على تكراره .

لا إخالنى أكذب إذا قلت : إن الاتفاق على تكرار أول أبريل أقرب من الاتفاق على تكرار ذلك اليوم المخيف : يوم الصدق الكاشف والحق المبين .

ذلك ظن صادق لا إثم فيه ، وهو كذلك لا يعيب الحق ولا يعيب الطبائع الإنسانية . لأن الناس لا يتقون ذلك اليوم « المخيف » كراهة منهم للحقيقة نفسها ، بل كراهة لما تظهره الحقيقة من العيوب والأسرار . والناس يحبون النور جدًّا ولا يكرهونه فى وقت من الأوقات ، ولكنهم إذا حذروا من الفضيحة أطفئوا المصابيح أو تواروا بالحجاب ، كراهة منهم للفضيحة لا كراهة للنور .

وهكذا يستريح الإنسان إلى تمويه الحقائق وتجميل الظواهر والتفريج عن النفس بالخروج من الواقع الذى يثقل عليه . ولكنه لا يستغنى أبدًا عن النور ... وإن خافه أو توارى منه فى وقت من الأوقات .

سنة حافلة

نحن الآن فى أيام الوداع من السنة الشمسية ، فلا تمضى أيام معدودات حتى نلحق « سنة ألف وتسعمائة وخمس وأربعين » بذمة التاريخ .

وأصدق ما يقال فى هذه السنة المولية - وتتفق عليه الآراء - أنها قد حملت من الحوادث والأطوار فوق ما تطيقه سنة واحدة ، بل فوق ما تطيقه سنوات .

فقد شهدت مصارع ثلاث من الدول الكبار .

وشهدت محاولات الأمم - على متن الكرة الأرضية بأسرها - فى سبيل تقرير السلام .

وشهدت تجربة لم يسبق لها مثيل من تجارب الإنسانية لتنظيم الهيئة العالمية التى تقيم علاقات الدول على أساس الإنصاف ورعاية الأخلاق وتفضيل التفاهم بالمودة على التغالب بالسلاح .

وشهدت مساعى الأمم الجسام فى معاملاتها الجديدة سواء فى التجارة أو السياسة أو الثقافة أو تبادل المعونة والضمان .

وشهدت فى كثير من الأمم انقلابًا سلميًّا أو دمويًّا فى شكل الحكومة ومقاصد الرعية والرعاة .

وشهدت أخطر اكتشاف عرفه البشر منذ مئات السنين وهو اكتشاف القنبلة الذرية .

وهذه كلها رءوس مسائل عامة ، تطوى تحتها من المسائل الخاصة أو المسائل المحلية ما يضيق عنه الحصر والإحصاء ، ولو بإشارة الإجمال .

فأحرى بنا أن نستفيد من سجل هذه السنة فائدته الأولى ، بل فائدته الكبرى . وهى أنها لا تحتمل المزيد من الحوادث والأطوار ، وأن الذين انتظروا منها مزيدًا من هذه وتلك يظلمونها ويكلفونها فوق طاقة الأيام ، وأوهلم أولئك الذين انتظروا منها أن تحقق أحلام الإنسانية منذ آلاف السنين ، فلا تنقضى إلا وقد ذهب كل خوف وسكن كل اضطراب وارتفع كل ظلم وبطل كل خلاف ، وتوطد صرح السلام فى كل أمة وفى كل مكان .

أمل كثير على سنة قد اتسعت لما اتسعت له السنة المولية من الحوادث والأطوار .

بل كثير على سنة قد فرغت لهذا الأمل وحده دون سائر الآمال والأعمال .

بل كثير على عشر سنين ، بل كثير على مائة سنة تتواصل فى الجد والرجاء ... ولا أرانى من المتشائمين ولا من المتمهلين .

فإذا انقضت مائة سنة على هذا اليوم وصحت الأحلام كلها فى السلام الدائم فقد حق للإنسانية أن تغبط نفسها غبطة السعداء .

لقد مضت ألوف السنين فى ارتقاب السلام ، ولم تمض عبثًا ، ولا كان مضيها مسوغًا للتخاذل والقنوط .

فحسبنا أننا قد غيرنا أسباب الحروب فى هذا الزمن الطويل .

فكانت الحرب مطلوبة مشكورة لغير سبب ، ثم كانت مطلوبة كما تطلب الضرورات لأسباب من أوهى الأسباب . فسفكت دماء الألوف فى بعض الحروب لأن أمة من الأمم دخلت فى تركة أميرة تزوجها أمير فى أمة أخرى ، وسفكت الدماء لأن الشعوب كانت كالسلع التى يتنازع عليها التجار فى الأسواق : يطالب بها مدعى الحق فيها كما يطالب بقطيع من الماشية يساق هنا أو يساق هناك .

ثم ضنوا بالدماء أن تسفك لأمثال هذه الأسباب ، فسمعنا بالحرب التى تعلن لمصلحة عنصر ممتاز على سائر العناصر البشرية ، وسمعنا بالحرب التى تعلن فى سبيل مبدأ من مبادئ الأخلاق الفاضلة يسعد به الأقوياء والضعفاء ، وسمعنا بالحرب التى يراد بها ختام الحروب .

إن المتعللين الذين لا يفوتهم البحث عن دواعى القنوط يراجعون هذه الأسباب فيقولون : كلا أيها المتفائلون . إن الحروب التى أعلنت للنزاع على مواريث الأمراء ، أو لاعتبار الأمم تركة من التركات أو قطيعًا من قطعان الماشية ، لم تعلن فى الحقيقة لهذه الأسباب ، ولم تكن قط هى الباعث الصحيح إلى

القتال . ولكنها علل ظاهرة ومعاذير كاذبة ، تخفى وراءها أسبابًا أخرى لا تختلف كثيرًا عن الأسباب التى تضرم الحروب فى هذه العصور .

وربما صح ما يقول أولئك المتعللون .

ربما صح أن أسباب التركات والمواريث لم تكن هى بواعث الحروب وأنها كانت دائمًا من قبيل التعلات والمعاذير .

ولكن لماذا بطلت تلك التعلات والمعاذير ؟

لماذا لا يتعللون بها ولا يقبلها الناس منهم الآن ؟ لسبب واحد يدل على تقدم فى طريق السلام أو تقدم فى كراهة الحروب ، وأن الأسباب التى كانت تكفى للحرب من قبل قد أصبحت اليوم غير كافية فى نظر الساسة والشعوب ، ولابد من سبب أكبر وأعظم من تلك الأسباب لإقناع الناس بالحروب واستثارتهم لها فى العصر الحديث .

ومن استهان بهذا التقدم فخير له وللإنسانية أن يريح نفسه من عبء الرجاء أو القنوط فى هذه الأمور .

* * *

ستمضى السنة المولية إذن دون أن تنجز للناس كل ما انتظروه منها ، والملام عليهم لا عليها إذا اختلف الرجاء والتقدير .

وستمضى السنة المقبلة دون أن تنجز للناس كل ما يريدون – وعليهم الملام كذلك فى تعجل المراد ، وإن استحقوا الحمد على أنهم أرادوه .

غاية ما نرجوه بحق أن تنقضى السنة المقبلة ولا تدهم العالم بشر ما يخاف ، وهو اضطرام الحرب من جديد .

وهنا نظن ، بل نعتقد – أن قليلا من الثقة بدوام السلام أنفع من الكثير .

نعتقد أن اليقين فى دوام السلام خطر قد يجر إلى تجدد القتال الذى نغالى فى استبعاده وفى اتقائه .

هذا هو أكبر الأخطار فى هذه الأيام .

وكل شىء بمقدار .

حتى الرجاء – وهو من أعظم الخيرات – ينبغى أن نرجوه بمقدار وإلا انقلب إلى بعض الشرور .

فعسى أن يخاف الناس قليلاً ليظفروا بالرجاء الكثير .

وخليق بالناس أن يخافوا الحرب فى عصر القنبلة الذرية لأنه خوف يتحقق فى ساعات معدودات ولا يحتاج إلى انتظار الأجيال ولا السنوات . ثم تكون الساعة الواحدة أفتك وأهول من مائة عام .

وفى الحق أنه أعسر امتحان تعرضت له طبيعة الإنسان ، لأنه هو الامتحان الأخير .

إن أخفق فيه فلن تعاد له الفرصة كرة أخرى .

وإن نجح فيه فقد أصبحت هذه القوة الجهنمية بشيرًا له بالنعيم المقيم .

طفولة الإنسانية

أتحدث إلى حضراتكم عن طفولة الإنسانية ، ولا أعنى بطفولة الإنسانية تلك السن الباكرة التى مررنا بها جميعًا فى مطلع حياتنا ، ولا بأطفال الإنسانية تلك المخلوقات الصغيرة التى نراها كل يوم فى بيوتنا أو حول بيوتنا .

وإنما أعنى تلك الطفولة التى تلازم الإنسان إلى ما بعد الكهولة والشيخوخة ، بل تلازمه حتى يفارق الحياة ، وهى طفولة الروح أو طفولة الأخلاق .

ولكننا لا نستغنى عن الكلام فى طفولة السن حين نتكلم فى طفولة الروح ، لأن الطفولتين تتشابهان فى خصلة واحدة ، وهى أنهما تساقان إلى الخير بجزاء وإغراء ، وتدفعان عن الشر بجزاء وإغراء .

فالطفل سنًّا لا يتناول الدواء الذى يشفيه إلا إذا وعدته باللعبة وقدمت له الحلوى ، ولا يمتنع عن الخطأ الذى يضيره ويسقمه إلا إذا لوحت له بالعصا أو الحرمان .

وكذلك الطفل روحًا وخلقا تقوده إلى الفضيلة بوعد وتذوده عن الرذيلة بوعيد ، ولو كان رجلا فى الروح والخلق لما احتاج

إلى الوعد والوعيد .

طفل السن يلهب الرمد عينيه وتريه القطرة التى تشفيه وتخفف الألم عنه ، فيأباها ويصر على إبائها ، أو تبذل له الهدايا وتمنيه بالفرجة والمكافأة الحسنة .

ولكنه يصبح رجلا فيسعى إلى الطبيب بقدميه إذا رمدت عيناه ، ويبذل ثمن القطرة من ماله عن رضا وارتياح ، ولا يحتاج إلى أمر ولا وعد بجزاء .

وطفل السن تضنيه الحمى وتنهاه عن مفارقة الحجرة فلا يرضى ولا يصيخ إلى النصيحة وهو قادر على مخالفتها ، ولا تزال به حتى تزين له الاعتكاف فى المنزل بالألاعيب التى تبثها من حوله والعلالات التى تعلل بها خياله وتشغل بها فراغ وقته عن التفكير فى اللعب والخروج .

ولكنه يصبح رجلا فيعتكف مختارًا ويغضب على من يفتح النافذة عليه فى حجرته فضلاً عن الخروج من الدار .

فعمل المفيد النافع بجزاء هو الطفولة ، والامتناع عن الضرر الوبيل بجزاء هو الطفولة ، وقد ترى الرجل فى الخمسين أو الستين أو السبعين وهو طفل بهذا المعنى فى الحالتين .

أليس طفلا بهذا المعنى ذلك الرجل الذى لا يفعل الحسن الجميل إلا وهو ينتظر الأجر عليه ؟ ولا ينتهى عن العيب الذميم إلا وهو يخشى ما وراءه من عقاب ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى يطلب المآثر لأرباحها وغنائمها ولا يطلبها لذاتها ؟

أليس طفلاً ذلك الرجل الذى ينتهى عن النقص لأنه مهدد بالعاقبة السيئة ولا ينتهى عنه لأن الكمال خير من النقص ، ولأنه بغيض إليه أن يرضى بأسوأ الحالتين وأبخس الصفقتين ؟

إن الرجل الذى يقال له كن قويًّا لتصرع الأسود وتغلب الجبابرة وتكافح الأمراض ، لا يسألنا : وما جزائى على ذلك ... ؟ فلماذا يسألنا الجزاء إذا قلنا له : كن قويًّا لتصرع الشهوات والمطامع وتنهض بالفروض والعظائم ، وتقدر على المطلب الجسيم الذى يعجز عنه الآخرون ؟

إن الذى يترك الطعام الغث ليأكل الطعام المفيد لا ينتظر الجزاءعلى ما ترك أو على ما اختار ، فلماذا ينتظر الجزاء على اختيار المروءة وترك النذالة ، أو على اختيار الشرف وترك الضعة والخمول ؟

إنه يشترى الحرير بالثمن الغالى ويترك الكرابيس وإن عرضت عليه بالثمن الرخيص ، فلماذا ينتقل إلى سوق المحامد والفضائل فيأخذ الحرير وهو ينتظر المكافأة على أخذه ؟ ويترك الكرابيس وهو ينتظر المكافأة على تركها والأنفة منها ؟ .

إنه لا يفعل ذلك إلا لسبب واحد : وهو أنه طفل الروح والأخلاق ، لا يميز بين الحسن والقبيح ، ولا يعرف النافع

والضار ، ولا يدرى الذى هو أدنى والذى هو خير ، ولو درى ذلك لترك الأدنى لأنه أدنى وكفى ، وفعل الخير لأنه خير وكفى ، وكذلك يفعل الرجال كل يوم ، حين يميزون بين الغالى والرخيص ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الرفيع والوضيع .

إنهم يطلبون الرفيع ويبذلون الثمن العزيز فيه ، ولا يطلبون الرفيع وينتظرون من يكافئهم على أخذه كما يصنع الأطفال : أطفال الروح والأخلاق .

* * *

وهنا يخطر على البال ذكر الثناء .

فيخيل إلى الأكثرين أن المرء مطالب باختيار المآثر لأنها تجلب له الثناء ، ومطالب باتقاء المعائب لأنها تعرضه للندم وسوء المقال .

وفى هذا الخاطر شيء كثير من الصدق والتعبير عن الواقع ، ولكننا إذا اكتفينا به لم يرتفع بنا كثيراً عن طفولة الروح والأخلاق .

لأن الثناء يأتى من ألسنة الناس ، وألسنة الناس لا تقول الحق فى كل حين ، بل الناس أنفسهم لا يعرفون الحق فى كل حين ، ولا يعرفون على الدوام ما هو جدير بالحمد وما هو خليق بالمذمة والإنكار .

وقد ينعكس الأمر عندهم فيذمون الحميد ، ويحمدون الذميم .

وآية الناصح الأمين أنه يعلم الناس مالا يعلمون ، وأنه يهديهم إلى الخصال التي يغفلون عنها ، ويحذرهم من العيوب والأخطاء التي يقعون فيها ، ولولا ذلك لما كان للناصحين الأمناء من عمل ، ولا كان للنوابغ المتقدمين على أزمانهم من ضرورة ولا منفعة .

فإذا اقتصر الرجل على ما يحمده الناس وما يذمونه لم يتقدم الناس ، ولم يكن لذلك الرجل من فضل عليهم ، ولا من أثر مشكور فى إصلاح شئونهم وتبديل أحوالهم .

وإنما عليه أن يدعو إلى الأفضل الأكمل وإن ذموه . وأن ينهاهم عن الأسوأ الأخس وإن أحبوه ، وليس فى وسعه أن يفعل غير ذلك إن كان حقًّا على إيمان وثيق بما يراه ، وشعور عميق بما يدعو إليه .

إن الرجل الذى يستطيب النظر إلى الحدائق والبساتين وينفر من الجلوس إلى المستنقعات والبؤر الموبوءة لا يفعل ذلك لأن الناس يحمدونه أو يذمونه ، ولا لأنهم يرضون عنه أو يسخطون عليه ، فإنه ليحب النظر إلى الحدائق والبساتين وإن ذموه ، ويكره النظر إلى المستنقعات والبؤر وإن شكروه .

كذلك يصنع الرجل الذى يسمو به الذوق ويعلو به الروح حتى يدرك الفارق بين المنظر الجميل والمنظر القبيح ، إنه لينظر هنا أيضًا إلى الحديقة المزهرة وإن لم يغنم ثناء من ألسنة الناس ،

وإنه ليعرض هنا أيضًا عن البؤرة الكريهة وإن ساقته إليها ألسنة الناس ، لأنه يحتمل الأذى فى سبيل المتعة بالجمال ويحتمل الأذى فى سبيل البعد عن القبح والدمامة ، وجزاؤه على ذلك أنه يرى الجمال ولا يرى القبح والدمامة ، وليس جزاؤه ما يقال أو ما لا يقال .

تلك هى رجولة الروح والأخلاق . وأما ما دونها فهو طفولة الإنسانية التى تحتمل الرمد ولا تحتمل القطرة ، والتى تتداوى من الرمد بأجر ووعد ، وتقبل القطرة بأجر ووعد ، ولن تزال كذلك حتى تبلغ مبلغ الرجال .

* * *

إن رجولة الروح والأخلاق هى أرقى ما ترتقى إليه الإنسانية فى معارج الجمال ، وقد قال أبو العلاء :

ولتفعل النفس الجميل لأنه　　　خير وأجمل لا لأجل ثوابه

وهكذا ينبغى أن يفعل كل إنسان تجاوز مرتبة الطفولة إلى مرتبة النضج والكمال .

ينبغى أن يرتفع الإنسان لأن الرفعة جميلة فى عينيه . ولأن الخسة مؤلمة لنفسه ، وكذلك يفعل كل إنسان فى المحسوسات كل يوم وكل ليلة ، فيأكل الشهى لأنه يحب مذاقه ، ويلبس الجميل لأنه يعجب بحسنه ، وينبذ المطعم الكريه لأنه لا يستطعمه ،

ويعرض عن الملبس الزرىّ لأنه يأنف منه ، وليس لسبب غير هذا وذاك .

وإنما ترتقى الأمم والأفراد إلى هذه الدرجة الرفيعة حين ترتقى فى التمييز بين الأخلاق والأذواق كما تميز بين المحسوسات من المأكول والملبوس .

عندئذ يسهل الإصلاح فى الأمة ، ويسهل على المصلح أن يصل منها إلى مواضع الإقناع .

فالأمم فى هذه الخصلة قسمان : أمم الأطفال وأمم الرجال :

أمم الأطفال هى الأمم التى تعودت أن تطلب الجزاء وراء كل نصيحة ، فإذا قام فيها المصلح الأمين شكت فيه ولم تفهم ما يريده إلا إذا وقع فى روعها أنه ينتظر الجزاء فى الدنيا والآخرة ، إما بالثناء وإما بجنات النعيم ، وهى تفهمه إذن على قدر ما تتصور من جزائه وجزائها ، لا على قدر الكمال الذى يدعو إليه ولا على قدر التمييز بين الصواب والخطأ وبين الرجولة والطفولة .

أما الأمم التى ارتفعت فى مراتب الرجولة فهى لا تستريب فى المصلح الأمين لأنها لا تجهل فائدته وجزاءه ، ولا يهمها إلا أن تميز كلامه لتعرف موقع الصواب فيه ، فإذا كان صوابًا اتبعته وإن كان عظيم الكلفة عليها ، وإذا كان خطأ أنكرته وإن كان محببًا إليها وميسورًا لديها . كما يفعل طالب الصحة حين يميز بين

الطبيب الصادق والطبيب الكاذب ، فيصغى إلى الطبيب الصادق وإن أمره بترك اللذيذ من الطعام وشرب الكريه من الدواء ، ويعرض عن الطبيب الكاذب وإن وصف له ما يرضيه وموَّه عليه فى حقيقة ما يشكوه .

والعبرة فى كل حال بالتمييز .

فلم نخطئ فى وصف الرجولة بأنها سن التمييز ، لأن الخطوة الأولى فى سبيل الاختيار الصحيح هى تمييز الفاضل من المفضول والراجح من المرجوح ، ثم تأتى الخطوة التالية وهى الأخذ بالراجح وإن صعب الأخذ به ، وترك المرجوح وإن تيسر الحصول عليه .

وكذلك رجولة الإنسانية هى فى الواقع درجة التمييز بين الكمال والنقص مع غض النظر عن المكافأة والعقاب ، فمن ميز الكمال والنقص طلب الكمال وإن خسر فى سبيله ، وترك النقص وإن ربح من ورائه ، ولم يجد غرابة فى هذا وذاك ، ولم يساوره الندم بعد هذا وذاك .

* * *

ما دام الإنسان يريد الخير فهو ينشده ويبذل فيه ثمنه وإن غلا ، وهو إذن رجل الروح والأخلاق .

وما دام الإنسان يراد على الخير فهو لا ينشده إلا إذا عرف

الجزاء عليه ، وهو إذن طفل الروح والأخلاق وإن جاوز السبعين والثمانين .

وخير ما نرجوه لهذه الأمة أن تحمل تكاليف الرجولة بغير نظر إلى جزاء ، فذلك فى النهاية هو أوفى الجزاء .

جنون المـــال

أصدق ما يقال فى التهافت على المال فى هذه الأيام ، إنه جنون ... لأن الجنون هو الذى يخرج الإنسان عن طوره ، ويضل العقل عن صوابه ، ويدفعه إلى الإجرام الذى لا يستبيحه وهو مالك لرشده ، محافظ على اتزانه ، مقدر للتبعة التى عليه ، والعاقبة التى تلقاه . وهذا هو الجنون الذى يتمثل لنا فى تهافت المصابين به على طلب المال ، غير مبالين أن يطلبوه من طريق الشر أو من طريق الرذيلة أو من طريق النذالة والسقوط ، فلم نسمع فى غير هذه الأيام أن رجلاً ينتمى إلى طائفة شريفة مجعولة لصيانة الشرف والنظام ، يقتل زميليه بعد تدبير طويل ، واحتيال خبيث ، ثم يشرع فى إحراق جثتيهما ، لينجو بفعلته ويأمن عاقبة عمله ، وإنه ليصنع كل ذلك ويصر على صنيعه ويروض عليه ضميره ساعة بعد ساعة ، ويومًا بعد يوم ، طمعًا فى مبلغ من المال لا يحمل اللص المحترف ، فى غير هذه الأيام ، على مثل هذا الصنيع .

ولم نسمع فى غير هذه الأيام أن أفرادًا من الطلاب الناشئين ، يتفقون على التسلل إلى عيادات الأطباء عسى أن يجدوا فى

ملابس أصحابها مبلغًا من المال ، قل أو كثر ، يأخذونه بالحرام وينفقونه بالحرام . ولم نسمع فى غير هذه الأيام أن الأخ يقتل ابن أخيه ثم يقتل نفسه بعده ، لأن أخاه ضاق ذرعًا بالإنفاق عليه . فلا تردعه براءة الطفولة التى وثقت به واستسلمت إليه ، ولا يردعه موقف الموت الذى يوقظ الضمير الميت بعد طول هجوعه ، ولا يتغلب شىء من ذلك على حقده الذى أججه فى نفسه حرمانه من بعض المال .

والمال محبوب حيث كان ، ومحبوب فى كل زمان .

ولكن هذا الحب ضرب من الجنون ، وليس بالحب الذى يصدر من العاقل ويبقى لصاحبه بقية من رشاد أو اعتصام .

من أين جاء هذا الطائف الغريب بعد الحرب العالمية ، وفى أثناء الحرب العالمية ؟

أهو « انحلال » يعقبه الزوال كما يجرى على ألسنة المتشائمين المذعورين من طغيان هذا الوباء ؟

أما أنه وباء فلا شك فيه ، لأنه طغى على جميع الأمم وظهر فى جميع البيئات !

وهذا هو الذى يدفع التشاؤم ويدعو إلى بعض الرجاء ، ولا تناقض فى هذا كما يبدو من الوهلة الأولى : لا تناقض فى الوباء الذى يدعو إلى الرجاء . لأن الإنسانية لا تصاب بالانحلال كلها دفعة واحدة ، والأمم لا تمرض مرض الفناء كلها

دفعة واحدة ، فإذا كان وباء عاما فهو ليس بانحلال ، وفى ذلك بعض العزاء وبعض الرجاء فى تبدل الحال غير الحال .

وأكبر الظن أنه اختلال فى أوضاع الأمور ، وليس بانحلال ينذر بالفناء .

هو اختلال فى توزيع المال بين الطبقات والأفراد أعطى أناسًا فوق ما يستحقون وحرم أناسًا مما يستحقون ، فاضطرب ميزان المجتمع ودب هذا الاضطراب إلى العقول والأخلاق .

ولاأحسب أننا نصفه الوصف الكامل إذا قلنا إنه اختلال ، أو إنه سوء توزيع للثروة ، ثم وقفنا عند هذا الحد اليسير .

فليس زماننا هذا أول زمان اختلت فيه موازين الأرزاق ، وأعطى أناسًا بغير حق وحرم أناسًا بغير حق ، وخص فريقًا بالثروة العريضة وفريقًا آخر بالضيق المحرج والإعسار الشديد .

كلا . ليس زماننا هذا بأول زمان جرى فيه هذا التفاوت فى الأرزاق . فقديمًا عرفت الأمم أناسًا يبنون القصور ويجمعون القناطير ، وأناسًا يحرمون القوت ولا يدخرون فى الصباح وجبة المساء من الطعام ، فضلا عن أرزاق أيام وأعوام .

وقديمًا قال الحكماء فى ذلك ، ونظم الشعراء فيه ما هو مشهور ومأثور من شكوى الزمن ، أو من تنبيه ذوى الثراء إلى واجب الأغنياء .

لكنه اختلال واختلال .

وقد يكون الفرق بين اختلال واختلال ، أبعد جدًّا من الفرق بين الفوضى والنظام ، وبين الاختلال والاعتدال .

فليس المهم فى اختلال الثروة سوء التوزيع ، وإنما المهم فيه كيف يسوء التوزيع ، وكيف يكون الحصول على الثروة ؟ وكيف يكون الإنفاق ؟ ومن الذى ينفق ماله الكثير ؟

ولهذا يقع الفارق العظيم بين اختلال واختلال ، وقد وقع هذا الفارق العظيم فى أيام الحرب العالمية ، وبعد أيام الحرب العالمية ، فوقع العالم كله فى هاوية هذا البلاء .

يقول الرياضى الكبير « أوليفر لودج » ليس من الحكمة أن تهتم القوانين بمن يحمل السلاح ، ولا تهتم بمن يحمل المال ، وهو سلاح أخطر من كل سلاح .

وهذا هو مقطع الصواب فى كل مشكلة من مشاكل الثروة ، وكل آفة من آفات الاجتماع .

والحرب العالمية لم تجن على الأمم جناية الاختلال ثم تركتها عند ذلك . ولكنها أضافت إلى الاختلال كل جناياته ، فوضعت المال فى شر الأيدى ، ومكنتهم منه بشر الوسائل . وفتحت لهم شر الأبواب للبذل والإنفاق .

وضعت المال فى شر الأيدى ، لأنها هى الأيدى التى امتلأت بالمصادفة من تقلبات الحرب وطوارئ المفاجآت ، أو هى أيدى الوضعاء الذين يتسفلون فى طلب الرزق ولا يكلفهم التسفل

مشقة تأباها طبائعهم الوضيعة ، لأنهم من قبل ذلك وضعاء .

ومكنتهم منها بشر الوسائل ، لأنها وسائل الغش وَخدمة الشهوات والاتجار فى السوق السوداء بأقوات الجياع ، وأدوية المرضى ، وتهريب السلع ومضاربات الأسعار .

وفتحت لهم شر الأبواب للبذل والإنفاق ، لأنهم ينفقون المال بغير مبالاة فى سوق الفساد ، ويبعثرونه ذات اليمين وذات اليسار لشراء الذمم والأعراض وتشجيع الغواية والإجرام .

وهذا هو الاختلال المخيف ، لأنه اختلال يقلب أوضاع الأمور وينقض المبادئ القويمة ، ويهدم الاعتقاد فى الخير والعدل والإنصاف .

وعندئذ تجب مراقبة الأيدى التى تحمل المال . كما تجب مراقبة الأيدى التى تحمل السلاح . لأنها تقتل بسلاح المال كل خلق شريف ، وتحمى به كل خلق مرذول .

ومتى ضاعت الثقة بالإنصاف ، وكثرت وسائل الإغراء ، وارتفع إلى مقام القدوة المحسودة من كانوا فى مواطئ الأقدام . فقد بطل الشعور بالعيب وغلب على النفوس شعور واحد : وهو المكسب العاجل واللذة العاجلة ، فكلهم يعمل لساعته الحاضرة ولا يبالى بالغد القريب ولا بالمستقبل البعيد . ومن بعده الطوفان .

ولا نجاة للإنسانية فى هذه الحالة إلا بتقصير أجلها وتوقيف

أثرها وإقامة السدود المنيعة التى تصد تيارها الجارف ، قبل أن يكتسح فى طريقه كل أساس من أسس العمران . وعلى المصلحين والحكومات واجب مضاعف فى أمثال هذه الأوقات .

فالمصلحون مسئولون عن إحياء المبادئ وتثبيت العقائد وتغليب المثل العليا على المنافع الصغيرة . لأن النفس الإنسانية لا تتهالك على اللذة العاجلة إلا إذا أقفرت من المبادئ الباقية ، وخلت من العقيدة المقنعة التى تقاوم إغراء الساعة . وتطمئن إلى دوام الخير والصلاح .

أما الحكومات فواجبها الأكبر فى أمثال هذه الأوقات أن تنزع السلاح من أيدى المجرمين ، ونعنى بالسلاح هنا سلاح المال ، وهو فى الواقع أمضى سلاح ، ولولاه لما حمل المجرم السفاك سلاح النار والحديد .

وليس المقصود أن تصادر الحكومات أموالا فى أيدى المالكين ، لأن المصادرة عمل يأباه نظام الحكم الحديث .

ولكن المقصود هو استخدام الضريبة لنفع المجتمع كله بأموال بعض الأفراد ، وهو من جهة أخرى إغلاق أبواب المفاسد التى تنفق فيها الأموال بغير حساب ، وتباع فيها الأعراض والأخلاق بيع السماح .

وليس فى الضرائب المشروعة مخالفة لمبادئ الحرية أو قواعد الاقتصاد . لأن المجتمع صاحب الحق الأول فى الأموال التى

يجمعها الأفراد من أبنائه ، ولا سيما فى أوقات الحروب وما بعد الحروب . إذ تكون الثروات الطارئة مأخوذة فى الغالب من أقوات الناس ومن الخسائر الفادحة التى تحملوها على السواء .

وإذا بقيت الأموال الكثيرة فى أيدى الأفراد فينبغى أن تحول الحكومات بينهم وبين استخدامها فى المفاسد والآثام ، وهى قادرة على ذلك إذا حجرت على أسباب الفتن وأقامت الرقابة على أسواق الشهوات ووضعت المصاعب فى سبيلها ، وحالت بينها وبين إيقاع الأبرياء فى شباك الإغراء والإغواء .

* * *

إن الأطباء الاجتماعيين يحدثوننا عن آفات الأمم وأدواء الجماعات ، ويحدثوننا عن أعراض من الجنون تصاب بها بعض هذه الجماعات فى أوقات بعد أوقات .

فإن لم يكن تهافت بعض الناس على المال فى زماننا هذا جنونًا أو سعارًا ، فلا نعرف له اسمًا آخر بين الأسماء ، وإذا كان المصلحون والمسئولون لا يحمون الأمم منه ، كما يحمونها من مجنون يحمل السلاح فى كلتا يديه – فقد تذهب الأمم فريسة لذلك الجنون المنطلق من جميع القيود .

وكل شىء جائز إلا أن يقف المصلحون والمسئولون مكتوفى اليدين حيال هذه السورة الطائشة ، فإن موضع الكتاف هنا هو

أيدى المجانين ، لا أيدى المصلحين والمسئولين ، ووقانا الله العاقبة إذا انطلقت الأيدى التى تستحق الكتاف ، وكتفت الأيدى التى تتحرك للخير والإصلاح .

الاتجاهات الحديثة فى الأدب العربى

شاعت فى الأدب العربى اتجاهات حديثة منذ أوائل القرن الحاضر لم تكن شائعة فى عصوره الماضية ولكنها – على هذا – لم تزل على اتصال بعناصر الأدب من أقدم عصوره .

ومن شأن هذا الاتصال أن يحوط حركة التجديد بشيء من الأناة والتريث ، لأن الأدب العربى متصل باللغة كجميع الآداب فى الأمم كافة ، ولكن اللغة عند العرب خاصة متصلة بكتاب الدين الإسلامى وهو القرآن الكريم ، ومن هنا كان الانقطاع بين الاتجاهات الحديثة والعناصر القديمة أصعب وأندر من المعهود فى آداب الأمم الأخرى ، وأمكن أن تقاس درجة المحافظة ، أو درجة التجديد ، فى كل قطر من الأقطار العربية بمقياس التراث الإسلامى فيه . فحيثما تمكن هذا التراث فى جوار الأماكن المقدسة ، أو المساجد الكبرى ، أو المعاهد العلمية العريقة ، فهناك تزداد الأناة فى تلبية الاتجاه الحديث ، ويشتد الحرص على دوام الصلة بين القديم والجديد ، كما يشاهد فى أطوار حركة التجديد بالحجاز والعراق والشام وفلسطين وبلاد المغرب ومصر ولبنان .

وإلى جانب هذا العامل القوى من عوامل الأناة المقصودة ، يعرض للأدب العربى سببان آخران غير مقصودين ، يعوقانه عن الاسترسال مع كل حركة جديدة وكل اتجاه حديث . وهما غلبة الأمية وقلة القارئين ، ونقص وسائل النشر لتوزع القراء بين الأقطار العربية وصعوبة توحيد النشر فيها .

وقد يظهر اختلال وسائل النشر حتى فى القطر الواحد الخاضع لحكومة واحدة ، كما نرى فى الديار المصرية ، حيث أوشكت القاهرة أن تنفرد بوسائل النشر المنتظم وتعذّر قيام المكتبات الناجحة فى غير العاصمة الكبرى .

فالاتجاهات الحديثة فى الأدب العربى تخضع لهذه العوامل التى تحدها عن قصد وروية ، أو عن ضرورة لا قصد فيها ، وهى عوامل يندر أن تجتمع نظائرها فى أدب أمة واحدة ، ولهذا يلاحظ أن الاتجاه الحديث فى أدبنا العربى يجرى فى مجراه بداءة ثم لا يبلغ أقصى مداه الذى يتاح له أن يبلغه فى الأمم الأخرى ، ولا يخلو هذا الحد من بعض الخير ، حين يمنع الاندفاع والاعتساف فى اتباع الدعوات الطارئة ، ولكنه خليقٌ أن يعالج فى جانب التعويق منه ، كلما كان هذا التعويق عارضًا من عوارض النقص والاختلال .

وعلى هذا كله قد اتجه الأدب العربى فى أوائل القرن العشرين وجهات محسوسة لم تكن شائعة في عصوره الماضية بعيدها

وقريبها ، سواء فى مبناه أو فى معناه ، أى سواء فى الألفاظ والعبارات ، أو فى المطالب والموضوعات .

* * *

ففى اللفظ تتجه الكتابة العربية إلى التصحيح والتبسيط ، وتنجم فى العالم العربى من حين إلى حين دعوات جدية إلى إعادة النظر فى قواعد اللغة ، لتيسير الكتابة بها وتعميم فهمها . وتصدر هذه الدعوات عن نيات مختلفة لغايات متباينة . ولكنها قد تنقسم فى جملتها إلى قسمين اثنين : أحدهما يراد به تغليب اللغة الفصحى ، والآخر يراد به تغليب اللغة – أو اللهجة – العامية وإحلالها محل الفصحى فى الكتابة والخطابة وأحاديث المعيشة اليومية .

وكل ما يبدو من مصير هذه الدعوات أن الأمر لا ينتهى بانفراد اللغة الفصحى ولا بانفراد اللغة العامية فى الكلام المكتوب . وإنما يدل الاتجاه الظاهر – إلى يومنا هذا – على إمكان العزل بين الموضوعات التى تستخدم فيها كل من اللغتين . فتستخدم العربية الفصحى فى الموضوعات العامة الباقية ، وتستخدم العربية العامية فى الموضوعات المحلية الموقوتة ، ومنها لغة الكثير من الروايات التمثيلية سواء فى المسرح أو فى الصور المتحركة ، وكأنهم يحسبونها بهذه المثابة من الكلام المسموع الذى نمر به فى المسرح كما نمر فى الأسواق والبيوت ، ولا يشعر من

يسمعه بالانتقال من بيئة المعيشة اليومية إلى بيئة التعليم والثقافة ، وقد يساعد على الترخص فى لغة التمثيل أنها لا تكتب الآن ولا تؤلف للبقاء الطويل ، وإنما تؤلف لموسم بعد موسم ، وقلما تعاد بعد انقضاء مواسمها .

أما موضوعات الكتابة العربية ، فأول ما يلاحظ فيها غلبة المنثور على المنظوم ، خلافًا لما كان معهودًا فى معظم العصور ، قبل بداية القرن العشرين .

ولابد من انتظار الزمن قبل الحكم بدوام هذه الحالة أو زوالها وارتهانها ببعض الأسباب الموقوتة . ولكننا نستطيع أن نلمس منذ الساعة ، سببين بارزين يفسران لنا هذا الاتجاه الجديد فى تاريخ العصور الأدبية :

أولهما : أن الشعر كانت له فى العصور الماضية طائفة نافذة السلطان تشجعه وتتكفل بقائليه ، وهى طائفة الممدوحين من العظماء والسراة وأصحاب المصالح السياسية ، ولا سيما فى الزمن الذى كان النظم مفضلا فيه على النثر فى الدعوات السياسية لسهولة حفظه على الأميين وغير الأميين .

وثانيهما : أن الشعر قد شورك مشاركة قوية فى بواعثه ودواعيه عند جمهرة القراء من غير طبقة السادة والعظماء . فإن جمهرة القراء يجدون اليوم منافذ كثيرة للتعبير عن العاطفة والترويح عنها فى الروايات الممثلة والروايات المقروءة . وما يذاع

من الأغانى أو يحفظ فى قوالب الحاكى ويردد فى المحافل العامه ، فضلاً عن الصحف والمجلات وسائر النشرات ، وكل أولئك كان ميدانا وحيدًا للشعر أو كان ميدانًا للشعراء يوشك أن ينفردوا فيه .

ويلاحظ بعد هذه الملاحظة العابرة عن الشعر والنثر ، أن نصيب القصة فى الكتابة المنثورة آخذ فى الازدياد والانتشار ، وأن فن القصة العربية قد تقدم فى الربع الثانى من القرن العشرين تقدمًا لم يعرف له مثيل فى ربعه الأول ولا فى القرن الماضى الذى ازدهر فيه فن القصة بين الآداب العالمية . وفى بعض القصص التى تؤلف فى هذه الفترة نزوع إلى ما يسمى بالأدب المكشوف ترتضيه طائفة من قراء الجنسين ، ولا يقابل بالرضا عنه من جمهرة القراء .

ثم يلاحظ مع هذا أن الترجمة تنقص فى هذا الربع الثانى وأن التأليف يزداد ويتمكن فى كثير من الأغراض .

ولعل مرجع هذا إلى نمو الثقة بالنفس فى الأمم العربية ، وإلى ظهور طائفة من الكتاب يستطيعون الكتابة فى موضوعات مختلفة ، كانت وقفًا على الترجمة قبل ثلاثين أو أربعين سنة .

وهنا أيضًا يحسن بنا أن ننتظر أطوار الزمن قبل الحكم بدوام هذه الحالة أو زوالها وارتهانها ببعض الأسباب الموقوتة .

لأن نشاط التأليف فى السنوات الأخيرة قد يرجع إلى

عوارض مستحدثة فى الحرب العالمية الحاضرة ، ومنها قلة الوارد من الكتب والمطبوعات الأجنبية ، واتساع الوقت للقراءة واللبُث بالمنازل فى الليالى التى قيدت بها الإضاءة ومواعيد السهر فى الأندية العامة ، ومنها ضمور حجم الصحف والمجلات وفرض الرقابة على المنازعات السياسية التى تشغل طائفة كبيرة من القراء ، ومنها حالة الرواج التى يسرت أثمان الكتب لمن لم تكن ميسرة لهم قبل سنوات .

فإذا استقرت هذه الأسباب جميعها فى قرارها بعد تبدل الحال وضحت الحقيقة فى حركة التأليف ووضحت كذلك فى حركة الترجمة ، لأن الترجمة قد تعود إلى رجحانها بعد تدفق المؤلفات الأجنبية التى تعالج مشكلات العالم فى منابتها الأولى ، وقد يكون تدفق هذه المؤلفات موجبًا للكتابة فى موضوعاتها والتعقيب عليها دون ترجمتها .

أما أغراض الأدباء من موضوعاتهم وكتاباتهم ، فالربع الثانى من القرن العشرين حقيق أن يشهد فيها انشعابًا لم يسبق إليه قط بين المدرستين الخالدتين على مدى الزمان ، ونعنى بهما مدرسة الفن للفن ، ومدرسة الفن لخدمة المصالح الاجتماعية أو المصالح السياسية .

فمنذ وُجد الأدب وجد الأدباء الذين يكتفون بالتعبير لجماله وإعرابه عن سرائر النفس الإنسانية ، ووجد الأدباء الذين

يعبرون ليرجّحوا دعوة على دعوة ، أو يقنعوا الناس بمذهب من مذاهب الإصلاح ويحركوهم إلى عمل مقصود .

ولكن الآونة التى نحن فيها تجنح بالناس إلى التفرقة الحاسمة بين المدرستين الخالدتين ، لأنها ليست تفرقة بين رهطين من الأدباء وكفى ، ولكنها تفرقة بين نظم حكومية وطبقات اجتماعية ودعوات فلسفية لا تزال عرضة للمناقشة فى صدد المعيشة اليومية وصدد التفكير والدراسة . إذ كان من قواعد الاشتراكية المتطرفة أن الطبقة الاجتماعية الغالبة على الحكم فى حل من تسخير الآداب والفنون والعقائد لخدمة مصالحها وتمثيل عاداتها وآمالها . فإذا أضيف القائلون بهذا الرأى لأنهم يدينون بالاشتراكية - إلى القائلين به لأنهم ينكرون مذهب الفن للفن عامة ، فقد أصبحت الآونة الحاضرة فى الحقيقة آونة النظر فى المدرستين الخالدتين على وجه من الوجوه .

وقد ظهر فى اللغة العربية بعض القصص والدراسات التى تتناول المسائل الاجتماعية ، وتصور الغنى والفقير ، والرجل والمرأة فى صورة تستحث النفوس إلى طلب الإصلاح والتغيير ، ولا تزال تظهر فيها قصص ودراسات تصور الحالة فى صورتها الفنية وتترك العمل المترتب على ظهورها فى هذه الصورة لشعور القراء . ولكننا نعتقد أن مصير الخلاف بين المدرستين ، كمصير الخلاف بين دعاة الفصحى ودعاة العامية . فلا تنفرد مدرسة

الفن للفن بالميدان ، ولا تنفرد به مدرسة الفن لخدمة المقاصد الاجتماعية ، لأن أنماط الكتابة والتفكير لا تفرض بالإملاء والإيحاء ، وإنما تفرضها على الأديب سليقته ومزاجه . فمن غلبت فيه سليقة المصلح على سليقة الفنان ظهرت الدعوة فى كتابته عامدًا أو غير عامد ، ومن غلبت فيه سليقة الفنان على سليقة المصلح لم يفده إكراهه على الدعوة ، إلا أن يقتسر طبعه على غير ما يحسنه ويجيد فيه ، ولن تخلو الدنيا من أصحاب السليقتين .

وقد أسلفنا فى صدر هذه الكلمة أن درجة المحافظة - فى كل قطر من الأقطار العربية إنما تقاس بمقياس التراث الإسلامى فيه ؛ فحيثما تمكن هذا التراث فى جوار الأماكن المقدسة أو المساجد الكبرى أو المعاهد العلمية العريقة فهناك تزداد الأناة فى تلبية الاتجاه الحديث .

ولا تصدق هذه الملاحظة على شىء صدقها على الدعوات الاجتماعية التى تمس قواعد الدين . فإن درجة النفور منها تكاد تتمشى فى الترتيب بين الأقطار الإسلامية على حسب المعاهد العريقة التى فيها وحسب منزلتها فى القداسة والرعاية الدينية ، وذلك هو شأن الأقطار العربية فى كل تجديد له علاقة بالعقيدة الإسلامية من قريب أو بعيد .

وإذا أردنا أن نوجز القول فى وصف الاتجاهات الحديثة فجملة

القول فى وصفها ، بعد هذه اللمحات عن مبناها ومعناها ، أننا نعبر الآن فترة البداية فى الاستقلال والثقة بالنفس ، وأن هذا الاستقلال يتجلى حينًا فى التحرر من القديم ويتجلى حينًا آخر فى التحرر من الجديد .

فقد مضى زمان كان يكفى فيه أن يكون الشىء قديمًا ليحكى بلا تصرف ولا مراجعة ، ومضى بعده زمن كان يكفى فيه أن يكون الشىء أوربيًا أو حديثًا ليحكى بلا تصرف ولا مراجعة ، فهذا الربع الثانى من القرن العشرين قد عرف أناسًا يأبون التقيد بكل قديم لأنه قديم ، كما يأبون التقيد بكل جديد لأنه جديد . ومن الناس اليوم من يوصف بالابتكار والجرأة لأنه يستمسك بقديم كان الاستمساك به وقفًا على الجامدين ، ومنهم من يوصف بالجمود والمحاكاة لأنه يعجل إلى الجديد الذى يستحب على سنة التقليد . ولعل الحقيقة المقبلة هى التى يكتب لها أن تثبت قدم الاستقلال وتطلق الآراء من حجر القديم والجديد على السواء .

معنى الثقافة[1]

أحييكم فى دراكم العامرة ، ويروقنى أن أعتبرها تحية سابقة أستأنفها فى هذه المناسبة الحاضرة . فقد سمعت بكم وبداركم قبل أن أراكم ، وخاطبتكم بكتبى قبل أن أخاطبكم بلسانى ، ولاقيتكم فى شعاب الفكر والمطالعة قبل أن ألقاكم بين الجدران فى فناء واحد . فأحرى بتحية اليوم أن تعد تجديد تحيات سابقات ، وأن ألقاكم بها كأننى كنت معكم أمس وسأظل بينكم غدًا ، ما وصلت بيننا صلات البحث والثقافة .

وقد سألت نفسى فيم أتحدث إلى حضراتكم الليلة ؟ والموضوعات متشعبة والميول متعددة والدار حافلة بأصداء الأحاديث التى ترددت من قبل فى شتى المطالب ومختلف الأغراض. فلم يطل سؤالى لنفسى فى اختيار الموضوع حتى هدانى إليه عنوان الدار أقرب هداية : دار الثقافة ... فليكن الموضوع إذن فى الثقافة ومعناها ، وهو موضوع واحد له شعاب لا نهاية لها ، ولو تكلم فيه ألف متكلم واستمع له ما لا يحصى من السامعين .

---

(١) ألقيت فى نادى الثقافة بالخرطوم سنة ١٩٤٢ .

فخلاصة ما أصف به الثقافة أنها هى ترويض الوظائف الإنسانية على استيفاء نصيبها من الحياة الفضلى ؛ وما أكثر الوظائف الإنسانية ! وما أعظم الأنصبة فى الحياة ! وما أعجب الوسائل التى تتوسل بها إلى استيفاء كل نصيب منها .

هذا عالم ليس بالمنتهى فى عصر ولا مكان ، وليس بالمحصور ولا بالذى يحسن أن يحصره الحاصر . فوظائف الحياة أكثر من أن تحصر وأعمق من أن تسمى بالأسماء . وإنما أنا مشير منها إلى الجانب الذى أراه ، فإذا وافقت إشارتى موقع النظر منكم فقد صنعت شيئًا يستحق مشقة الهنيهات التى يقضى فيها هذا الصنيع .

نحن نعطى الحياة كما نعطى مزرعة مهيأة للغرس والتثمير .

منا من يستصلح بعضها ويهمل أكثرها ، ومنا من يستصلحها كلها ولا يزرع فيها خير الثمار التى هى صالحة لإنباتها ، ومنا من يزرع فيها خير الثمار ولا يستوفى محصولها فى أكرم أعوامها ، ومنا من يستوفى المحصول ولا يتجه به إلى السوق التى تعم فيها منافعه وتكثر فيها غنائمه وأرباحه .

والثقافة هى الصناعة التى نستوفى بها ثمرات هذه المزرعة الوحيدة التى لا نملك مزرعة غيرها ، ونعنى بها مزرعة الحياة .

هى الصناعة التى تعلمنا كيف نزرع حياتنا جميعًا ، وكيف

نختار لها أحسن ثمارها ، وكيف نستخرج منها أوفى بركاتها ... أو هى الصناعة التى نستحيى بها الحياة .

ونحاول عبثاً إذا حاولنا هنا السرد والاستقصاء فى كل مطلب من مطالب الحياة . ولكننا نشير كما أسلفنا بضع إشارات نرجو أن تعيروها مكان النظر فى أعينكم ، وفى هذا الكفاية من حديث واحد ، بل من عدة أحاديث .

وعلى هذا نقسم مطالب الثقافة إلى ثلاثة عناوين : مطالب الحس ، ومطالب الحركة ، ومطالب التفكير .

فالحس عند بعض الناس أمر سهل بالغ فى السهولة ... ما على الإنسان إلا أن يترك نفسه على علاتها والحس يأتى إليه طواعية بغير استدعاء ولا محاولة .

وبعض الناس هؤلاء مخطئون ، بل جد مخطئين .

فالحس أحوج شىء إلى التعلم والرياضة ، ومن أراد زيادة فى نصيب الحس فقد أراد زيادة فى نصيب الحياة بأسرها ، أو فى التموين الذى تتغذى به الحياة على أقل تقدير .. وذلك شىء كبير ، وشىء كذلك عسير .

ولهذا ينبغى أن نقرر أن مقياس الحس الصحيح هو مجاوبة المؤثرات المحسوسة ، وليس هو مجرد التلقى لها أو « أخذ خبر » بحدوثها كما يقولون .

كيف نجاوب المؤثرات ؟

هذا هو مقياس الحس الصحيح .

أما كيف نتلقاها « ونأخذ خبرًا بها » فليس ذلك بالمقياس الذى يعرف منه نصيب الإنسان فى الإحساس .

قد يقال لرجل : إن السيل مقترب من بيتك . فإذا علم معنى كلمة السيل ومعنى كلمة الاقتراب ومعنى كلمة البيت فقد علم الخبر علمًا قاموسيًا لا يتعدى كثيرًا علم المذياع بما يتلقاه ، أو علم الأداة التلغرافية بما يرسل إليها من الشرطات والنقاط . ومعظم الناس يظنون أن هذا هو الإحساس كل الإحساس ، ويعجبون حين يقال لهم إن إحساسهم بالحياة ناقص وأن تعبيرهم عنها ناقص من أجل ذلك ، وأن مجاوبتهم لها ناقصة أيضًا بمقدار نقص الإحساس ونقص التعبير .

إلا أن المجاوبة التى تبين لنا عمق الشعور وقدرة الوظائف الحية على التلبية وعلى استيعاب المحسوسات هى التى نفهم منها أن السامع قد أحس وقد وعى وقد اشتمل على الأداة الصالحة لتلقى المؤثرات من حوله ، وبغير هذه الأداة لا فائدة من الفهم القاموسى أو الفهم التلغرافى الذى يعتز به بعض الناس ويحارون إذا قيل لهم : زيدوا نصيبكم من الإحساس فليس هذا هو الإحساس .

ولست أمل تقرير هذه الحقيقة التى يتوقف عليها فهم جميع الحقائق التى تعوزنا نحن الشرقيين .

لست أمل تصحيح الخطأ الشائع بيننا نحن الشرقيين إننا أهل حس وأهل عاطفة وأهل خيال ، فلا حاجة بنا إلى المزيد من هذه « الكماليات الرخيصة » كما يزعمون .

كلا . ما نحن بمستوفين نصيبنا من الحس ولا من العاطفة ولا من الخيال .

فألف ليلة وليلة كلها خيال رخيص لا يغنينا عن استيفاء ملكات التصور والإحاطة بالمحسوسات : ألف ليلة واقع فى انتظار التنفيذ والإنجاز وكل ما فيها من قصور ومن حسان ومن لذة فى المطاعم والشهوات إنما هو واقع مما نراه كل يوم ... إنما هو حس قاموسى لما يتكرر فى الأنظار والأسماع بغير حاجة إلى ابتكار أو اختراع ، ليس هذا هو الخيال الذى يصور لنا الحقائق ويجلوها فى صور الفن والجمال . بل هو حلم الجوعان بسوق الخبز كما يقولون : ليس فى الخبز هنا من خيال إلا أنه غير موجود ، وأنه ما دام كذلك فهو حلم من الأحلام .

هل هذا هو الخيال الذى نحن محتاجون إليه ؟

كلا . فهذا خيال يغنينا عنه الواقع الحرفى الذى لا معنى لتمنيه إلا عدم وجوده كما أسلفنا . وهو إذا وجد لا يزيدنا إدراكا للواقع ولا تغلغلا فى بواطنه ولا تجميلا لمرآه .

وكذلك العاطفة التى نغالى بشيوعها بيننا واستغراقها لحواسنا الظاهرة والباطنة ويخيل إلينا أننا فى حاجة إلى التخفيف منها ،

وأحوج ما نحتاج إليه فى الحقيقة هو زيادتها ثم زيادتها إلى أقصى ما تستطاع الزيادة .

لأن العاطفة هى محرك الحياة وهى باعثها وهى المسوغ الذى يسوغ لنا المحافظة عليها والمنافسة فيها ، والبلوغ بها إلى مدى المنافسة من التقدم والظفر والسيادة .

تعلمون حضراتكم حكاية الجندى التركى العنيد الذى حاول أن يشق البطيخة بالمقص فنهاه الأمير وأراه أنها لا تفتح به ، وإن كان قاطعًا ، ولكنها تفتح بالسكين !

فأصر الجندى على المقص ، وأصر الأمير على السكين حتى ضاق ذرعًا بجنديه العنيد وأمر به أن يقذف فى لجة الماء فما زال ينادى وهو على وجه الماء : بالمقص تفتح البطيخة ، بالمقص وليس بالسكين . نعم لا تفتح إلا بالمقص ولن تفتح أبدًا بالسكين حتى غاص فى الماء وأوشك أن يحتويه القاع ، فرفع يده إلى السماء لا ليبسطها بالدعاء وهو مشرف على الفناء . بل ليفتح أصبعيه على النحو الذى يفتح به المقص ، ويعلن فى اللحظة الأخيرة من حياته أن البطيخة بالمقص وحده تفتح .. وهيهات أن تفتح بالسكين !

حضرات الإخوان !

أرجو ألا أتمثل لكم فى صورة ذلك الجندى إذا قلت لكم إنها هى العاطفة القوية التى نحتاج إليها ، وليست العاطفة القوية

بالفضول الذى نستغني عنه ، ونود لو أراحنا الله من بقاياه .

فمنذ سنوات دار النقاش بيني وبين الأستاذ الزهاوى رحمه الله حول هذا الموضوع ، فغنى هو قصيدته للعقل وغنيت أنا قصيدتى للعاطفة ، وإن كنت لا أعنى بذلك إنكار العقل وإنكار حاجتنا نحن الشرقيين إليه .

وكانت أيامها أيام الطيار الأمريكى لندبرج وقفزته الجريئة فى عبور المحيط الأطلسى فى أربع وعشرين ساعة . فراح الأستاذ الزهاوى يسألنى : بماذا عبر لندبرج المحيط الزاخر ! بالعقل أم بالعاطفة !!

قلت : بل بالعاطفة ... وبالعاطفة أيضًا اخترعت الطيارة وبالعاطفة جاشت النفوس حتى ضاقت بها آفاق الحياة فنهضت نهضتها وطمحت طموحها ، واخترعت ما اخترعت من الطيارات والسيارات وغيرها من المخترعات .

وأين هو العقل الذى يقول لفتى فى سن لندبرج : قم يا هذا فجازف بحياتك ومصيرك من أجل تجربة واحدة فى عبور المحيط ؟

إن ابتسامة واحدة ينتظرها لندبرج من إنسان يحبه أو يعجب به أو يود أن يكون فخرًا له ، لقد أقنعته سلفا بعبور المحيط الذى لا تقنعه بعبوره ملايين العقول ، وما مكان العقل هنا إلا مكان المنفذ أو الخادم الذى أمره السيد فأطاع . ولن يطلب

الخادم أبدًا فوق الذى يطلبه السيد بحال من الأحوال .

وأود لو تكشفت لى بصائركم الآن فأرى أننى قد ابتعدت فيها من صورة الجندى العنيد ومقصه الذى أشار إليه وهو يودع الحياة . فقد أظل إلى ختام حياتى أقول لمن يسألنى : بم يتقدم الشرقى أبالعاطفة أم بالعقل ؟ فأقول بل بالعاطفة قبل العقل ... ولا أراهم ينصفون العقل نفسه إذا وضعوا فى يدى مقصًّا كمقص ذلك الجندى وهو غارق فى لجة الماء !

إننا لا نقيس العاطفة بمقياس أصدق من هذين المقياسين الخالدين وهما الحب والموت .

فالحب يعلم من لا يعلم كيف يحب .

والموت يعلم من لا يعلم كيف يحزن .

فإذا شئنا أن نقيس حظنا من العاطفة بواحد من هذين القياسين الخالدين فماذا نرى وماذا نسمع ؟

نرى الحب عندنا يضعف الحياة ولا يضاعفها ، ونرى غناء المحبين عندنا كأنين المحتضر موزعًا بين الشكوى والبكاء واصطناع الرقة العمياء ، وكله يجرى على نمط واحد وصورة واحدة فى جميع الأغانى وجميع الأسماع . ثم هؤلاء السامعون المتيمون المفروض فيهم أنهم يستمعون الغناء وهو قبل كل شىء تناسق الأصوات والأصداء كيف يسمعون وكيف يشعرون بالغزل والنشيد ؟ إنهم ليخرجون من الوصلة الموسيقية – وقد يخرجون

فى أثنائها - إلى زعيق وصياح فيهما كل ما أودع الله الأصوات من شذوذ ونشوز ومنافاة لروح الموسيقى والغناء .

ليس هذا بفن وليس هذا بغزل وليس هذا بحب . إنما هو هياج حس يختلط كما يختلط كل هياج . ولو كان حبًّا صادقا لما جرى على وتيرة واحدة كما يجرى كل شىء متكلف مصطنع ملفق قائم على التظاهر والادعاء . فإن الحب المطبوع يختلف أربع مرات أو خمس مرات فى حياة الإنسان الواحد حسب اختلاف سنه واختلاف الشخصية التى يتعلق بها هواه واختلاف الأسباب التى بعثت فيه هذا الهوى واختلاف القدرة على التعبير من حين إلى حين . فيتعدد الغزل وتتعدد معانى الغناء وتتعدد الصور النفسية التى يوجهها السماع .

وهذا كله بعيد . جد بعيد . نعم بعيد إلى أقصى مدى البعد من الحب الذى تمثله لنا الأغانى والألحان ويمثله لنا السامعون فى مجالس الغناء .

أما الموت وهو أكبر معلم للحزن فهل نقول إنه علمنا الحزن ونحن لا نزال نحتاج إلى نائحة فى المآتم تبكى لنا قبل أن نبكى على أمواتنا ؟

هل نقول إنه علمنا الحزن ونحن لا نطيق الانفراد محزونين ؟

هل نقول إنه علمنا الحزن ونحن من ضيق النفوس بحيث لا تتسع لأحزاننا ولا نزال نعبر عنها بشق الجيوب ولطم

الخدود ؟ كأن الحزن يفاجئ منا قلوبًا لا تقدر على احتوائه ولا تدرى كيف تصبح قلوبًا فتسلم حزنها إلى الجوارح والعضلات لتحزن لها بالنيابة عنها !

هذان هما الحب والموت أقوى ما عرف الإنسان من إحساس ومن عاطفة ، وهذا هو النحو الذى نستجيب به لأطغى ما يطغى على بنية الحى فى أقوى مراحل الحياة ، فهل نعتقد - وهذا نصيبنا من العاطفة فيها - أننا أسرفنا فى العطف واحتجنا إلى القصد والتخفيف من هذا الترف الذى لا نفتقر إليه ؟

ألا إن الحق الذى لا مراء فيه ولا يطول فيه المراء أننا فى العاطفة لفقراء جد فقراء ، وأن الذى نحسبنا أغنياء به إنما هو عملة زائفة قليلة الغناء ، كأنما هى دنانير الحلوى والنحاس إلى جانب دنانير الذهب وأوراق اليسر والثراء .

وننتقل من هذه الكلمة المجملة على ثقافة الحس إلى كلمة مجملة مثلها عن ثقافة الحركة ، ويقال فيها مثل ما يقال عن ملكات الحس .

بل لعلها ولعل آثارها أظهر للعيان وأقرب إلى التقدير من الملكات الحسية التى ينطوى الكثير منها فى داخل الوجدان .

فقابلية الحركة فى البنية الإنسانية شىء لا نبالغ إذا قلنا إنه بلا انتهاء ، أو إنه على الأقل عسير التسجيل والإحصاء .

وقد يظهر لنا مقدار الثروة المكنونة فى البنية الإنسانية من

ملكات الحركة إذا التفتنا إلى بضعة أمثال قليلة مما نشاهده فى كل يوم ولا يعسر علينا أن نشاهد الأمثلة الكثيرة عليها حيث أردناها .

فهناك مثلا لاعب البليار وقدرته على أن يوجه الكرات الثلاث مائتى مرة – أو أكثر من مائتى مرة فى بعض الأحيان – إلى حيث يشاء كأنه يجذبها بخيوط تميل بها وتعتدل فى كل حركة وكل اتجاه .

فمقدار شعرة واحدة دون المكان الواجب أن يضع فيه العصا تفسد اللعبة من البداية ولا يتأتى مع هذا الخطأ اليسير أن يلامس الأكر مرة واحدة فضلا عن مئات المرات .

كذلك مقدار شعرة واحدة فى اختيار الاتجاه وموقع النظر قد يفسد اللعبة مثل هذا الإفساد .

وما يقال عن الاتجاه وموضع لمس العصا يقال عن قوة الدفعة التى يستخدمها فى تحريك الكرة الأولى . فإن همسة واحدة فى قوة الدفع تنقص أو تزيد تغير النتيجة من النجاح إلى الإخفاق .

ويتبع هذا جميعه ضبط اللاعب لموقع قدميه وانحناء صدره ومد ذراعيه ، إلى غير ذلك مما يتناول نظام الحركة فى البنية كلها على اختلاف أعضائها وأعصابها . وقد يخطئ أدق الآلات فى قياس المسافة أو القوة أو الوجهة أو الضوابط العصبية اللازمة للإصابة فى هذه اللعبة . ولكن البنية الإنسانية تحتوى فيها من مقاييس

الضبط ، مع حسن المرانة ما يعجز عنه أدق الآلات . وتتمكن منها المرانة حتى تبدو منها الحركة المقصودة كلها ارتجالاً لا مجهود فيه .

يشبه هذا المثال مثال الحربة التى يتعود أبناء البداوة أن يرسلوها إلى الهدف من بعيد أو قريب ، فلا يخطئون مع حسن المرانة إلا فى النادر القليل .

كل مسافة لها طريقتها المكافئة لها فى وقفه الرامى وفى نظرته وفى الزاوية التى تكون بين ذراعه وجسمه ، وفى قوة الدفعة التى سلطها على الحربة لتبلغ من رمية واحدة إلى حيث يريد لها البلوغ ، وتصدر هذه التوفيقات والضوابط جميعًا عفو الساعة ولا تزال تختلف من هنيهة إلى هنيهة كلما تغير موقف الرامى أو الرمية . وهو استعداد مستكن فى البنية الإنسانية لا نستخدمه ولا نستخدم أمثاله كأنه ليس من حقنا أو من ثروتنا الحيوية التى لا ثروة لنا فى العالم سواها . حتى ليصح أن يقال إن الإنسان يهمل من ملكات الحركة فيه على هذا الاعتبار تسعة أعشار ما عنده من وسائلها ومهيئاتها .

ويشبه هذين المثالين مثال رأيته فى بلدى أسوان ولعلكم رأيتموه أو ترون نظائره فى كل مكان .

رجل أكتع أو قطيع لا يستخدم يديه ولكنه يستخدم أصابع رجليه فى قدح الثقاب وصنع القهوة وإمساك القلم ومعظم ما

يصنعه الناس بأصابع اليدين . وقد تنقضى حياة الملايين من الناس دون أن ينكشف لهم أن أصابع الرجل قادرة على تدبير مثل هذا الصنيع .

فأين تذهب هذه الملكات جميعًا ؟ وماذا ينبغى أن نفهم من هذا وأشباهه ؟

إن المعنى القريب الذى ينبغى أن نفهمه منها أننا أصحاب ثروة معطلة لا نستفيد بها ولا نشعر بالفرق بين حرماننا منها ووجودها لدينا .

ويسرنى أن أقول إن نصيب الشرقيين من هذه القابلية – قابلية الحركة – عظيم وأنهم قادرون على الاستفادة بها كلما أرادوا ذلك كأحسن ما يستفيد الإنسان من نشاطه ومجهوده .

تدل على ذلك الألعاب الرياضية التى ينجحون فيها وتدل على ذلك المخترعات الحديثة التى يحسنون تناولها وتسييرها بغير عناء كبير ، وتدل على ذلك صناعاتهم اليدوية الفردية التى قلما يسبقهم فيها سابق من الأمم الأخرى ، وفى ذلك عزاء حسن وأمل كبير .

أما التفكير فيخيل إلى أن الحصة المهجورة أو المتروكة فى حساب كل إنسان من كل أمة على اختلاف الأمم لا يقدم كثيرًا ولا يؤخر كثيرًا فى تقرير هذه الحقيقة .

فما من إنسان يحاسب نفسه يومًا واحدًا على ما يصنعه بالفكر

وما يصنعه بحكم العادة والمجاراة إلا تبين له أن التفكير هو أول شيء يستغني عنه إذا أريد منه أن يستغني عن بعض الملكات .

لماذا تصنع هذا ؟

لأنه واجب !!

ولماذا هو واجب ؟

لأنني تعودته ، والناس من قبلي قد تعودوه !

ولماذا تعودته ؟ ولماذا لا تفكر من حين إلى حين في تغيير هذه العادة أو تنقيحها أو إعادة ضبطها والتوفيق بينها وبين الجديد من الطوارئ والمناسبات !

هنا الحيرة كل الحيرة ، والاضطراب كل الاضطراب . فمن الناس من لا يفكر فى أسباب عاداته وأسباب عادات الآخرين ، ومنهم من يفكر فيها ويرى أن المشقة فى احتمالها أهون من المشقة فى تغييرها عنده وعند غيره ... ومن الناس من يتصدى للتغيير فيخفق فيصبح عبرة للمعتبرين ، أو ينجح فيفتح الباب لنمط جديد من العادات والمألوفات لا يلبث طويلا حتى يخلف النمط القديم فى الجمود والاستقرار .

ولا أغالى إذا قلت إن الأمم بعد الأمم ، والأجيال بعد الأجيال ، ترسل نفسها فى التيار مئات السنين ولا تستشير الفكر كما تستشير الأمواج التى تحملها إلى حيث تشاء . فلو قلت لهم : اقذفوا هنا على الشاطئ ما أنتم مستغنون عنه فى

هذه الرحلة الطويلة لقذفوا بحقيبة الفكر دفعة واحدة بغير تفكير كثير ولا قليل .

والعادة ولا ريب حسنة من حسنات الحياة الإنسانية لأنها تقتصد لنا فى المجهودات الذهنية والنفسية فلا نبتدئ كل يوم باختراع الشيء الواحد ثم نعود إلى اختراعه عدة مرات .

وهذا هو القصد المشكور .

وهنا حسنة العادات المحمودة .

ولكن العادة إذا بلغ من تحكمها أن تشل الاختراع وتبطل المراجعة وتسلب الفكر مرونته المتجددة فهى إفلاس لا قصد فيه .

إنما تصبح العادة خيرًا محضًا إذا ملكها الإنسان ولم تملكه ، وإذا أبقت له فكره وقدرته على الاستقلال بالنظر ولم تجعله كالآلة المسخرة التى تنقاد أبدًا وتأبى أن تقود نفسها أو تقود غيرها من باب أولى .

والثقافة المثلى للملكات الفكرية هى أن نريحها من الاختراع المتجدد فى غير ضرورة ، وأن نحفظ لها - مع ذلك - ملكة الاختراع عند الضرورة . فتكون لنا عادات وتكون لنا أفكار ولا يقع التناقض بين الأمرين فنلغى أفكارنا بعاداتنا أو نختلق لكل يوم عاداته كأننا نعيش يوما واحدًا نكرره على نمط واحد فنخسر ولا نستفيد بهذا التجديد .

وتلك هى المشكلة الكبرى .

تلك هى مشكلة المحافظة والابتكار أو مشكلة الرجعية والتطرف أو مشكلة التقاليد والحرية فليست هى بالأمر اليسير الذى يعالج بكلمات وليس نجاح الثقافة فى علاجها بالأمل المحقق فى زمن قريب ، ولعله لا يتحقق أبدًا على طول الأزمان والأدهار . بل لعل تحقيقه على وجه التمام أقرب إلى الإضرار منه إلى الإفادة ، لأن الحياة الإنسانية لا تصلح بغير اختلاف دائم بين مزاج المحافظة ومزاج التجديد فربما كان هذان المزاجان قائمين فى البنية الواحدة فضلًا عن اختلاف الأفراد واختلاف الأحزاب واختلاف الأمم والأجناس .

* * *

وعلى هذا النحو يمكن أن نقول إن المصلحة الإنسانية لا تتحقق باستحياء كل ذرة فى أبداننا ونفوسنا من ذرات الحس والحركة والتفكير .

فهل من الميسور مثلًا أن يستحيى الإنسان كل عناصر حياته حتى يستخدم أصابع رجله كما استخدمها ذلك الأكتع القطيع ؟ ويستخدم حركات أعضائه على مثال من الضبط والدقة يشبه الضبط والدقة فى حركات لاعب البليار ؟

ذلك غير ميسور .

وهبوه كان ميسورًا لكل إنسان فلا شك أن المجهود الذى يبذل فيه أكبر جدًّا من الفائدة التى تعود منه !

ويبدو لنا أن الإنسان الذى يحاول ذلك كالرجل الذى يشترى جميع أوراق النصيب ليضمن الربح فى جميع الأوراق : هو خاسر وليس برابح ، وضمانه هنا أشبه شىء بالضياع وقلة الضمان .

إنما الثقافة المثلى أن يبذل كل منا المجهود الذى يلائمه فى استحياء وظائف حياته ، والحد الصالح لتقدير هذا المجهود هو ألا يكلفنا أغلى مما يعطينا . فيشغل العقل مثلًا لاستحياء أصبع ، أو يستغرق الملكات كلها فى ملكة واحدة . أما إذا كانت الأصبع مثلًا أصبع موسيقار أو أصبع فنان رسام فشغل العقل بها أقرب إلى النفع والتحصيل لا إلى الخسارة والتفريط .

وصفوة القول أن الثقافة هى استحياء عناصر الحياة جميعًا ولكننا نستحييها بالمجهود الذى يلائمها فلا نزيد فى بذله عن القصد النافع والقدر الصالح ، ولا ننسى الفوارق بين الملكات فى تقدير هذا المجهود .

ولست أزعم أننى حللت معضلة الثقافة بهذا الحديث العاجل الذى ألم بها إلمام العابر السريع بالخيال البعيد ، ولكننى عرضت على حضراتكم فى شأن الثقافة لمحات صالحة للاختلاف أو صالحة للاتفاق . فلا فرق بين اختلاف العقول واتفاقها فى شأن

الثقافة ، لأن الثقافة هى تمكين العقل والنفس من العمل ، وإنهما ليعملان حين يختلفان كما يعملان حين يتفقان .

فإن كنت قد بلغت ما قصدت إليه حقًّا فلى أن أطمع منكم فى رد السلام حين أبلغ الختام ، وأقرئكم السلام .

كلام عن التضحية فى يوم الأضحى

أحييكم مهنئا بهذا العيد ، وأسأل الله أن يتقبل ضحاياكم فيه ، وفى كل لحظة من لحظات العمر ، وأن يجعلنا جميعًا أهلاً للتضحية فى يومها المبارك ، وفى جميع الأيام .

وإذا سألنا الله أن يجعلنا أهلاً للتضحية ، فإنما نسأله أن يجعلنا أهلًا لكل خلق كريم ، وكل عقيدة صالحة . لأن التضحية هى قوام جميع الأخلاق ، وعماد جميع العقائد ، وألصق الفرائض المختلفة بطبيعة الأديان .

فما الكرم فى الحقيقة ؟

إنه التضحية بشىء من المال أو بشىء مما يحبه الإنسان .

وما الشجاعة فى الحقيقة ؟

إنها التضحية ببعض الحياة أو بكل الحياة .

وما الصدق فى الحقيقة ؟

إنه التضحية بمنافع الكذب فى سبيل شرف الضمير .

وما حرية الرأى فى الحقيقة ؟

إنها التضحية بالراحة وبالوفاق مع الناس ، فى سبيل المصلحة العامة أو سبيل الأمانة للعقيدة .

فليس فى الأخلاق المحمودة خلق واحد يخلو من التضحية ، وليس للفضائل العالية معنى مفهوم بغير التضحية ، وليس من ذوى الشأن فى دنياه إنسان لا يستطيع التضحية فى كل مرحلة من مراحل حياته ، وكل علاقة من علاقاته ، بأبناء قومه وأبناء نوعه .

وإذا سألنا الله أن يجعلنا من أهل التضحية ، فقد سألناه أن يجعلنا من أهل الأخلاق ، ومن أهل المروءة ، ومن أهل الاقتدار .

أما العقائد الدينية فالتضحية ألصق بها من الأخلاق ، فقد وجدت التضحية فى الأديان الأولى قبل أن توجد الأخلاق العالية والفضائل المحمودة . وكانت فى العقائد الأولى مغالاة بالضحايا المفروضة على الإنسان ، لأنهم كانوا يفرضون عليه التضحية بأبنائه وبناته وذوى قرباه ، ولا يلتزمون الحدود التى التزمتها الأديان الكتابية بعد ذلك ، رمزًا إلى معنى التضحية وحثًا عليها فى نطاقها الإنسانى الذى ترضاه العواطف الكريمة ولا تنفر منه الطبائع السليمة . فنشأت العقائد والضحايا فى مهد واحد ، ولم يخل دين قديم ولا حديث ، من تقرير هذه الفريضة فى مواسمه العامة ، أو تقريرها فى كل حين فما الزكاة وما الصدقات فى جوهرها إلا ضحايا مفروضة فى كل أيام العمر ، غير مقصورة على عيد النحر ، أو مناسك الحج والعمرة من كل عام .

ولعل أنسب الأوقات للكلام على التضحية هى أوقات الحروب وأوقات ما بعد الحروب .

لأن الناس يجمعون بين النقيضين فى هذه الأوقات ، فيضحون بالأنفس والأبناء والأموال فى ميادين القتال ، ويفرطون من جهة أخرى فى الجشع والتكالب على الربح الحرام ، حتى يهون على أحدهم أن يجازف بأرواح الملايين ليساوم على الغذاء والكساء ، ويبيع الدواء بأفحش الأثمان فى الأسواق السوداء .

وأعجب العجائب هذه الصورة المتناقضة التى تعرضها الحروب للطبائع الإنسانية فى وقت واحد .

فنرى الإنسان فى ساحة الاستشهاد بطلا من أبطال المثل الأعلى فى الشجاعة والنخوة والمفاداة ، يتقدم الجندى إلى الموت الأليم وهو فى ريعان الشباب وربما استقبل الموت بالعراء حتى يلفظ النفس الأخير وهو لا يسمع صوت صديق ، ولا مؤاساة رحيم ، ولا يتطلع إلى دواء يخفف عنه بعض ما يعانيه ، ويلقى الألوف - وألوف الألوف - أمثال هذا المصير فلا يلوى مصيرهم بالعزائم ، ولا يمنع غيرهم أن يتسابقوا إلى المورد الوبيل ، كأنه المورد العذب الكثير الزحام .

هذه ناحية من صور الطبيعة الإنسانية كما تمثلها لنا الحروب فى ميادين القتال .

أما الناحية الأخرى من الصورة فهى تهبط بالطبيعة الإنسانية

إلى قرارة الجحيم ومباءة الأبالسة والشياطين : لا رحمة ولا شرف ولا عقل ولا حياء . ولا همَّ للإنسان المتردى فى تلك القرارة إلا أن يجمع المال ، ولو استقطره من دماء الجياع والعراة والمساكين ، وجازف من أجله بمن يذودون عنه فى ساحة القتال ، ومن يقيمون معه فى وطن واحد يعم فيه المصاب جميع أبنائه ، ولو بعد حين .

وليس لمثل هذا الشيطان عذر معقول من هذا الجشع الأثيم . لأنه لا يتعب فيما يجمع ، ولا يسعى إليه بحيلة مشروعة . بل يستفيد فيه من المصائب التى تحيق بالأبرياء ، وأكثر ما يستفيد من غرق سفينة ، أو خراب مصنع ، أو طغيان طوفان جائح على زراعة ، أو انقطاع الصلات بين مكان ومكان . فإذا وقعت هذه الكوارث ضاعفها بما يزيدها هولا على هول وبلاء على بلاء : ضاعفها بحبس الأقوات ورفع الأسعار واستغلال جوع الفقير ومرض المحروم ولهفة الخائف وحيرة الأب المكلوم ، والأم المهددة بالثكل ، والطفل المهدد بالموت .

بل ليس لذلك الشيطان عذر مقبول ، لا من التعب فى جمع ماله ، ولا من التبصر فى إنفاقه ، لأنه ينفق أقوات ألف على سهرة فى حان ، ويعبث بالأعمار فى سبيل سويعات معدودات .

ذاك أعجب العجائب فى عصور الحروب . لأنها العصور التى ترينا أفضل ما فى الإنسان وأسفل ما فى الإنسان ، ولا تقف عند

الاعتدال بين التضحية المقدسة المحبوبة والجشع الجهنمى البغيض . ولكنها ترينا لهذا الإنسان العجيب وجهين متقابلين : أحدهما فى أوج السماء ، والآخر فى وهدة الجحيم . فلو تأتى أن تنقل أخباره إلى كائن من كائنات الكواكب العليا لأنكره وعدَّه من خرافات الأساطير ، وحسب أن الرواة ينقلون إليه أخبار الملائكة والأبالسة فى حومة نضال . ولا ينقلون إليه أخبار مخلوق واحد يسمى الإنسان .

وكتاب الدين – فى يوم من أيام الدين – أحق المراجع أن نرجع إليه فى وصف الإنسان ، كلما تراوح فى أيام المحن بين النقيضين : شرف الملائكة وخسة الشياطين .

فالقرآن الكريم يقول عن الإنسان : (إنا خلقناه فى أحسن تقويم) ويقول فى آدم : (وعلّم آدم الأسماء كلها) ويقول : (خلق الإنسان علمه البيان) .

هذا هو الإنسان فى صورته المثلى .

أما الإنسان فى صورته المقابلة لها فمن أوصافه فى الكتاب الكريم : (إن الإنسان لكفور مبين) .. (إن الإنسان لكنود) .. (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .. (إن الإنسان خلق هلوعًا . إذا مسه الشر جزوعًا . وإذا مسه الخير منوعًا) .

فهل قيل هذا الوصف المبين فى إنسانين أو مخلوقين متناقضين ؟

إن ساكن المريخ فى حل من الشك فى وجود الإنسان إذا سمع ما يروى عن فضله ونبله ، وما يروى عن بغيه وجهله . ولكننا نحن لا نشك فى وجودنا ولا نرتاب ف صفحتى الصورة منا ، ولا نحسب أننا من خرافات الأساطير ، لأننا نجمع بين النقيضين ونلاقى بين الطرفين ، ونصنع ذلك فى وقت واحد لا فى وقتين متباعدين .

فماذا نقول إن لم نقل إن هذا الإنسان مخلوقان متناقضان ؟

إن القرآن الكريم ليقول لنا ما ينبغى أن نقوله ، وهو : (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) .

فليس هو طبيعتين ، بل هو طبيعة واحدة تستجيب للحض والاستنهاض ، كما تستجيب للإغراء والإغواء ، ويكثر جوابها للدعوتين فى الجوانح العامة التى تشمل الملايين ، فتشمل كل ما فى الإنسان من خير وشر ، ومن كرم ولؤم ، ومن شرف وخسة ، ومن وفاء وكنود .

وليس بالنادر أن يلتبس الإنسان الواحد بالصورتين وينقاد لدعوة النبل والتضحية كما ينقاد لدعوة الجشع والجريمة . فمن الجائز جدًّا أن تقذف الحرب بالمستغلين الجشعين إلى ميادين القتال فإذ هم فى طليعة الشجعان والمجاهدين ، وأن تقذف الحرب

بالمقاتل المغوار إلى السوق السوداء ، فينسى الفداء ، ويتجر بالدماء ويمعن فى مطامع البيع والشراء .

يحدث هذا فى الجوانح العامة لأن الإنسان يندفع فيها مع التيار ، ويتوقف الاندفاع على التيار الذى يصادفه فى الطريق . فمن كانت له عصمة من نفسه عصمته وتحولت به إلى الطريق الذى يرضاه ، ومن كان فى طبعه أن يغمره التيار ، فالمعوَّل على التيار الذى يلاقيه ، ويدعو بالخير أو يدعو بالشر حيثما وقع منه الدعاء .

إن هذه النفس الإنسانية ترتفع بالأخلاق العالية على طريقتين : طريقة النسر الذى يصعد فى السماء بقوة جناحيه ، وطريقة الريشة التى تصعد فى السماء محمولة بقوة الرياح فى الأيام العاصفة .

وأوقات الحروب هى الأيام العاصفة فى أجواء النفوس الإنسانية ، ترتفع بكثير من الريش إلى أعالى الفضاء ، ثم تسكت العاصفة فلا يقوى ذلك الريش على البقاء فى عليائه بقوة جناحيه فيهبط إلى الرغام .

ولهذا نرى فى أعقاب الحروب كيف ينقلب الناس من التضحية إلى عبادة المنفعة العاجلة فى أيام معدودات لأن الذين رفعتهم العاصفة إلى سماء التضحية يعودون إلى الأرض أشد الناس كفرانًا بمبادئ التضحية والفداء ، ويزيدهم كفرانًا بهذه المبادئ

أنهم ينظرون إلى منافع الحرب فى أيدى الطامعين المستغلين ويذكرون أنهم هم الذين جاهدوا وخاطروا بالروح والراحة وأيديهم صفر من المنفعة ومن العمل ، بل من القوت الكفاف فى بعض الأحيان ، فإذا نظروا إلى الطامعين يتمتعون بالراحة والرخاء فى أيام الحرب وأيام السلام ، ونظروا إلى أنفسهم وقد حرموا الراحة والرفاء محاربين مسالمين - فمن الكثير عليهم أن يحافظوا على مبادئ التضحية والفداء بعد هذه المحنة الغاشية ، ومن الطبيعى فى حالتهم هذه أن ينقلبوا من السماء إلى الحضيض ، ولهم بعض العذر فى هذا الانقلاب .

نعم هم معذورون فى انقلابهم من النقيض إلى النقيض ، لأن الأخلاق فى أوقات الكوارث العظمى - مسألة اجتماعية وليست بالمسألة الفردية ، فمن الواجب على المسئولين فى الجماعات والأمم أن يحاربوا الاستغلال محافظة على الأخلاق : أخلاق المستغلين وأخلاق المجاهدين على السواء ، فإن عزت عليهم محاربة الاستغلال كله - فمن الواجب أن يقاسموا المستغلين أرباحهم ، بفرض الضرائب عليهم ، وتحويل تلك الضرائب إلى منفعة المحرومين ، الذين سلبتهم الحروب ما عندهم ولم يكن لهم نصيب فى أسلابها .

فمن الإفراط فى الرجاء أن نرجو من الناس جميعًا قداسة الملائكة ، وهم يعيشون فى غمار الفتن والضرورات .

إلا أننا نعود فنقول : إن فضيلة التضحية تتوقف على أعمال الجماعات والشعوب ، أو على أعمال الحكومة والحكام ، ولكنها لا تستغنى بعد كل عمل من أعمال الجماعة ، وبعد كل عمل من أعمال الفرد - عن عقيدة الضمير ، وعن الإيمان بالله .

فمن الحسن أن تعاودنا الأيام ، فى كل عام ، بيوم نذكر فيه هذه الحقيقة المتجددة : يوم يجمع بين التهنئة وبين التذكير ، أو يوم يسوق لنا الموعظة فى مساق الفرحِ والبشرى . وهو عيد الأضحى الذى تهنَئون به ، ونرجو أن تهنَئوا به فى كل عام .

فلسفة الصوم

كانت العبادات على اختلافها معروفة فى الأديان الوثنية القديمة ، ولكن الأديان الكتابية هذبتها ووفقت بين معانيها وفضائل النفس فى عهود التقدم والحضارة ، وأزالت عنها أدران الهمجية ومعائب القسوة والجهالة وبقايا الأساطير الأولى .

ومن العبادات القديمة فى تاريخ التدين عبادة الصوم بأنواعه الكثيرة ، ومنها الصيام عن بعض الطعام والصيام عن الطعام كله ، والصيام فى بعض ساعات اليوم ، والصيام فى أيام متواليات ، وصيام الشكر وصيام الرياضة ، وصيام التكفير .

ومن المرجح دائما أن العقائد التى تلازم النفوس زمنًا طويلاً لا ترجع فى نشأتها إلى أصل واحد ولا علة واحدة ، والصيام أحد هذه العقائد التى تحصى لها أصول كثيرة فى علم الأجناس البشرية وعلم المقابلة بين الأديان ...

فهو فى بعض مظاهره ضرب من عبادة الموتى أو عبادة الأرواح ..

فكان بعض الناس يجوعون باختيارهم حزنًا على موتاهم ، ثم تطور هذا الصوم فأصبح مفروضًا على الأحياء ترضية لأرواح

الموتى ، لكيلا تغضب هذه الأرواح إذا تمتع الأحياء بالطعام وبالشرب وهي محرومة منه ، ولهذا يقترن الصيام أحياناً بتقديم الطعام عند القبور ، كأنما يريد الأحياء المتقربون إلى الأرواح أن يقولوا لها .. إنهم لا يضنون عليها بالطعام ولا يستبيحون الأكل والشراب إلا بإذن منها ، وبعد الاستجابة لمطالبها ...

وفى كتاب « الغصن الذهبى » للسير جيمس فرازر إشارات وافية إلى أنواع الصوم التى تفرضها الغريزة الجنسية فى بعض مظاهرها . فهناك قبائل كثيرة فى الأمريكتين تفرض الصيام عن الطعام والاحتجاب عن النور عل كل فتاة بلغت مبلغ النساء . فتعزل الفتاة فى جانب من الكوخ ويحال بينها وبين النور ، كما يحال بينها وبين تناول الطعام من اللحوم والأسماك ، وربما منعوها الطعام جميعا من لحم ونبات خلال الأيام التى تعتريها فيها عوارض الأنوثة الأولى ، ويفعلون ذلك لاعتقادهم أن الفتاة فى هذه الحالة تستولى عليها روح إلهية غيور ، فلا يحسن وهى تحتل جسدها أن تدخل إليه شيء من الطعام ، ولا يحسن كذلك أن يراها أحد من الناس .

ولا شك أنهم خصوا الفتيات بهذه العبادة دون الفتيان لأن علامات البلوغ الجسدية ظاهرة فى الفتاة دون الفتى ، ولأنهم يعتبرون الحمل علامة محسوسة من علامات دخول الأرواح فى أجساد النساء .

وبعض الصيام يرجع إلى إرضاء أرباب القبيلة ولا سيما الأرباب التى تتكفل لها بالنصر فى ميادين القتال . فإذا خرج المحاربون إلى غزوة من الغزوات لزم الكهان محاريب العبادة والتزموا الحمية والتهجد ، وحرموا على أنفسهم شرب الماء إلا أن يكون حارًّا لا ينقع الظمأ ولا يطفئ الغلة ، لزعمهم أن شرب الماء البارد يلقى على حمية الجنود بردًا ويصيبها بفتور . فتركن إلى الهزيمة وتجنح إلى التسليم ، ولكنها لاتزال حارة مشبوبة العزائم مادام الكهان فى محاريبهم يتقدون بحرارة الظمأ وحرارة الماء الساخن ، وحرارة الدعاء .

وهناك أسباب أخرى تقترن بنشأة الصوم فى القبائل الهمجية الأولى ، بعضها باق إلى عصرنا هذا بين القبائل التى لا تزال على الفطرة ، يشاهده السائحون فى هذه الأيام ، كما نشأ فى تلك القبائل منذ قرون وأجيال .

إلا أن الصوم فى الأديان الكتابية شىء آخر غير هذا الصوم فى غرضه ومعناه ، لأنه ارتقى من مرتبة التعاويذ والحيل التى تصطنع لمداراة الأرباب والأرواح ، إلى مرتبة الرياضة النفسية والأدب الذى تعالج به الضمائر والأخلاق .

وقد تعددت حكم الصوم فى رأى رجال الدين من المسلمين وغير المسلمين ، فحكمة الصوم عند بعضهم أنه تعليم للأغنياء ليشعروا بحاجة الفقراء ، وحكمته عند بعضهم أنه تكفير عن

الخطايا بعقاب الأجساد التي تعانى ما تعانيه من الجوع والظمأ ، وعند بعضهم أنه تطهير للجسم وتنزيه عن الحاجات الحيوانية إلى الطعام والشراب . وأحسن الحكم موقعًا من العقل والنفس أن الصوم تدريب للعزيمة والخلق وتغليب لقوة الروح . وهو شرف إنسانى لا يزهد فيه الأغنياء ولا الفقراء . أما الصيام تعويدًا للأغنياء على الفقر واستعطافًا لهم على المحرومين – فهو من حاجات الأغنياء التي يستغنى عنها الفقراء ، وكل من هؤلاء وهؤلاء مفروض عليه الصيام .

كذلك تنزيه الجسد عن المطالب الحيوانية لا يمنع الإنسان أن يشعر على كل حال بأنه محتاج إلى الطعام والشراب ، ولا مصلحة له فى نسيان هذه الحقيقة مادام يذكرها دائما بعد ذلك النسيان .

فأحسن ما يقال فى حكمة الصوم كما فرضته الأديان الكتابية أنه رياضة نفسية وأنه تدريب للخلق والإرادة .

والذين ينكرون الأديان ويذكرون للصوم أضرارًا جسدية يغفلون عن الواقع الذى كان فى وسعهم أن يتنبهوا إليه . لأن التمرينات العسكرية كثيرًا ما تقوم على فرض الشدائد الجسدية على الجنود تصحيحًا لأجسامهم وتعويدًا لهم على مقاومة الطوارئ التي يستهدفون لها من قبل الحر والبرد ، واختلاف الطعام والشراب . وكثيرًا ما يفرض الأطباء نوعًا من الصيام على بعض

المرضى فيستفيدون منه ، ولا يمنعهم من تحقيق فائدته أنهم يغيرون عادات التغذية أو مواعيدها بضعة أيام أو بضعة أسابيع .

أما الذين يأخذون على الصيام أنه إنكار للذات وبقية من بقايا تعذيب الجسد فى شيعة الهنود الأقدمين - فهؤلاء يعكسون معنى الصيام من النقيض إلى النقيض ، لأن الصيام إثبات للإرادة وتقرير للعزيمة . ومن أثبت إرادته وقرر عزيمته فهو فى الواقع يعزز نفسه ولا ينفيها أو ينكرها ، وعلى نقيض ذلك من سخر نفسه لشهواته واستسلم للمغريات التى تحيط به ، فإنه فى الواقع ضائع النفس منكر الذات ، متقلب بين العوامل الحسية كما تتقلب الريشة فى مهاب الرياح ، وليس أثبت نفسا ولا أبعد من فناء الذات ممن يعرف له نفسا مستقلة عن إغراء المطامع والشهوات ، أو يسيطر بإرادته على معيشته فى ألزم الأشياء لجسده ، وهما الطعام والشراب .

فالصيام رياضة معقولة ، ورياضة قوية ، وليست هى رياضة الأمم التى تعاف الحياة وتزهد فى نصيبها من الدنيا ، بل هى رياضة الأمم السيدة المطاعة ، لأن الإرادة أول شرط من شروط السيادة ، وليس أظهر من قوة الإرادة فى أداء فريضة الصيام ...

ونعتقد أن طريقة الصيام فى الإسلام هى أنفع الطرق فى تربية الإرادة واستقلالها عن العادة التى تشبه الأوامر الآلية فى بعض الأحيان . لأن العزيمة تتجدد بالصيام الإسلامى كل يوم ،

إذ يتحول الصائم كل يوم من إباحة المطاعم والمناعم فى ساعات الليل إلى تحريمها فى ساعات النهار ، وهذه مزية للطريقة الإسلامية تجعل العزيمة أمرا متجددًا ما بين الصباح والمساء ، ولا تلحقها بحكم العادة التى يستمر عليها الصائم ثم يألفها بالاستمرار فلا يحتاج إلى القوة النفسية التى يحتاج إليها فى أوائل الصيام . ومن استطاع فى كل يوم أن يعقد عزمه على الصوم شهرا كاملا فتلك استطاعة باقية لا تخذله بقية أيام السنة ، ولا تحتاج إلى مرانة أطول من هذه المرانة فى كل عام .

ولا يحسب على الصيام ما يقع فيه بعض الناس من الشطط والإسراف ، أو من سرعة الانتقال بين الحرمان المطلق قبل غروب الشمس إلى المتاع المطلق بعد الغروب . فكل رياضة من الرياضات هى عرضة لمثل ذلك الشطط وذلك الإسراف ، ومن تجاوز الحد فى السباحة أو فى العدو أو فى حمل الأثقال فإنما اللوم عليه فيما يصيبه وليس على فنون الرياضة التى يقصدها الرياضيون .

ذكرت فى كتابى المراجعات قصة صديق توفاه الله منذ سنوات ، كان كثير الاطلاع على كتب الفلسفة العربية صريح الفكر لا يصدق بشىء قط على السماع ، وكنت أعرف أنه لا يؤمن بالأديان ولكنه يصوم شهر رمضان صيام الأتقياء . وكنت أعجب لهذه الظاهرة النفسية الغريبة وأسأله عن تعذيب

نفسه فى غير نية التدين أو الرياضة وأستطلع منه العلة التى يعلل بها ذلك فيقول لى - إننى أستحى أن أرى فى النهار مدخنا أو آكلا أو شاربًا ولا أحب أن أضعف عن الصيام وحولى من يقدرون عليه . وأسأله - فإذا خلوت بنفسك ألا تشرب الماء أو تلم بالتدخين .. ؟ فيقول لا وهو صادق فيما عهدته منه ، ويعلل ذلك بأنه يأبى أن يفطر منفردا عن الناس لأنه لا يحب أن يعترف لنفسه بمراءاتهم والنفاق فى حضرتهم .

وهذا أثر من آثار الصيام فيمن لا يدين به ، فكيف بمن يدين به ويقبل عليه بالنية والضمير .. ؟

على أن الصيام قد أصبحت له فى العالم الإسلامى اليوم مزية غير مزيةالرياضة الروحية والفريضة الدينية ، لأنه أصبح موسمًا اجتماعيًّا تتغير به مظاهر الحياة البيتية والاجتماعية فى بلاد المسلمين . ولا نظير لهذا الموسم الاجتماعى بين أبناء الأديان الأخرى على اختلاف مذاهبها فى الصيام ، لأن الزائر الغريب قلما يشعر بفرق ظاهر بين الحياة العامة التى يحياها أبناء تلك الأديان فى أيام الصيام ، وفى غير أيامه ، ولكنه يشعر بهذا الفرق فى كل مكان حيثما نزل بأمة من الأمم الإسلامية ، لأن ليالى رمضان بسهراتها وزياراتها وأفراح الأطفال فيها هى موسم نادر المثال بين مواسم السنة وفصولها ، وهى الفرصة التى تتاح فيها الألفة بين الناس أشد ما تتاح بين جموع تتكون من الملايين .

وعشرات الملايين ، فموسم رمضان هو موسم أسرة واحدة تأكل فى موعد واحد وتسهر على نمط واحد وتصلى وتتلو الدعاء فى أوقات معلومة لكل فرد من أفرادها وتتزاور وتتشاور ، وتعمل ما وسعها لبسط السلام ومنع الخصام ، وهذه الأسرة الواحدة هى أمم الإسلام .

تحية لهذه الأسرة الكريمة فى هذا الموسم الكريم ، ورجاء لها أن تظفر منه بجدواه الكبرى وهى مضاء العزيمة وتغليب الرشد على الغوية . فهى بهذه الفضائل النفسية تمضى على سنن السيادة وتنجو من ربقة الضعف والخنوع ، وهى تؤدى بفريضتها الدينية فريضة للعالم بأسره ، لأن العقيدة الدينية قد تخص شعبًا من الشعوب ، ولكن الخير الذى تؤتيه تلك العقيدة يشمل بنى الإنسان ..

القنبلة الذرية فى تجربة نفسية

بدئ هذا الشهر بتجربة القنبلة الذرية فى الأساطيل البحرية ، ولا تزال الأخبار تتوالى بآراء الخبراء فى نتائج هذه التجربة ، ولا تزال الصحف تتلقى الرسائل عنها ممن شهدوا التجربة أو سمعوا بوصفها أو بحثوا فى موضوعاتها المختلفة سواء منها موضوعات العلم وموضوعات الحرب وموضوعات السياسة .

والأقوال متفقة على شيء واحد فى هذه المسألة التى يقل فيها الاتفاق : ذلك الشيء الواحد هو أن التجربة كانت « أقل هولاً » مما توقعوه ، إما لاختلاف فى حجم القنبلة ، أو لاختلاف فى صناعتها ، أو لاختلاف فى تصويبها ، أو لاختلاف فى موقعها ، أو لجميع هذه الأسباب مقترنات .

وكل ذلك لا يعنينا فى حديثنا ، لأننا نقصره على تجربة القنبلة من الوجهة النفسية كما أسفرت عنها الوقائع إلى الآن . ولا نستغرب من هذه الوجهة – أى من الوجهة النفسية – أن تكون أخطار القنبلة فى البحر أقل هولاً مما انتظر الكثيرون . فهكذا فى الواقع ينبغى أن تكون . لأن الهول الذى وقع فى نفوس

الناس من استخدام القنبلة فى حرب اليابان كان هول المفاجأة الأولى ، وليس الهول المفاجئ كالهول المتكرر أو الهول الذى طال انتظاره والحديث فيه والمبالغة فى تخييله وتصويره . ويضاف إلى ذلك أن القنبلة فى الحرب تدمر المدن وتقتل عشرات الألوف ، ولكنها فى المناورات لا تقتل أحدًا من الناس ، ولا يقيس الخيال البشرى هولاً من الأهوال كما يقيسه بإزهاق الأرواح وتخريب الديار ..

فأيًّا كان الهول فى التجربة فهو أقل من الهول المنتظر ، بعد جماح الخيال وذهاب المفاجأة الأولى .

وغدًا نعلم : لماذا قصرت التجربة الواقعة عن إرضاء خيال المتخيلين وتقدير المقدرين . فربما كان ذلك لاختلاف حجم القنبلة أو صناعتها أو تصويبها أو موقعها ، وربما كان لاختلاف تقدير الخيال عن حقائق الواقع المشهود . فلننتظر ما يقول الغد فى كل هذا . فإنه لا شك قائل فيه قولاً مسموعًا يفصل بين الحقيقة والخيال ، ولنقنع الآن بالسؤال عن التجربة النفسية : علام أسفرت بعد ظهور هذا الاختراع ؟ وعلام دلت هذه الشهور التى مضت منذ تجربتها فى حرب اليابان ، قبل عام أو نحو عام ، وما الذى نفهمه حتى الآن من نتائج التجربة النفسية ؟ وهى ولا شك أحق بالسؤال ، وأحق بأن يسمع فيها جواب .

هل نتفاءل أو نتشاءم ؟ وهل نقول إن القنبلة الذرية بداية

النهاية ؟ أو نقول إن النهاية لا تزال حيث كانت ، وإن عوامل العمار لا تزال أرجح من عوامل الدمار ؟

لقد ألقيت بسهمي مع المتفائلين من اللحظة الأولى . لأن التشاؤم على الأقل لا يضيع عليه الوقت متى حان حينه ، ولن يفوتنا بفواته شيء نأسف عليه . فهل تعزز أمل المتفائلين أو تعزز خوف المتشائمين ؟ وهل تجربة العام الفارط – من الوجهة النفسية – تجربة تدعو إلى الطمأنينة ؟ أو تجربة تدعو إلى القلق والقنوط ؟

إننا لا نريد أن نرتل أناشيد الثناء على مكارم الجنس البشرى ، لأنه هو وملائكة الرحمة سواء .

ولا نريد أن نستعيد قصائد اللعن والهجاء التي قيلت فى أبناء هذه الدنيا ، لأنهم كالشياطين أو شر من الشياطين .

فهذا وذاك لا فائدة منهما فيما نحن فيه .

وأفيد من الأناشيد والأهاجى واقعة واحدة ، أو مقارنة صحيحة ، وهي المقارنة التي نقيس عليها حاضرنا وماضينا فى هذا الموضوع نفسه ، أى موضوع القنبلة الذرية .. فماذا كان يصنع تيمور لنك مثلاً بمجموعة من هذه القنابل لو وقع على أسرارها ؟ بل ماذا كان يصنع بها بطرس الأكبر أو نابليون الكبير ؟

إن الناس لا يجمعون على قول واحد فى مسألة من المسائل

العامة ، ولكننا لا نطمع فى إجماع أعظم من إجماعهم على جواب ذلك السؤال .

فمما لا شك فيه ، عند الأكثرين ، أن القنبلة الذرية لو اخترعت قبل بضعة قرون - لما بقيت فى يد قائد قوى شهرًا واحدًا بغير استخدام ، وإنها كانت تستخدم فى مطمع وغير مطمع ، وتهدد الأعداء وغير الأعداء ، وتخلق الحروب التى لم تكن تخطر على بال .

ومما لا شك فيه ، عند الأكثرين ، أن تصرف « الجنس البشرى » بالقنبلة الذرية قد اختلف فى عصرنا هذا عما كان متوقعًا منها فى عصور التاريخ القريب ، وأقربها عصر نابليون .

فاليوم تملك القنبلة الذرية دولة قوية أو أكثر من دولة قوية ، والذين يملكونها لهم مطامع فى السياسة والتجارة ، ولهم خصوم ومنافسون ، ولهم مشكلات دولية قائمة لم تنقطع منذ شهور ، وفى بلادهم قادة من رجال القوة والسيف وطلاب المجد والظهور ، وفى بلادهم كذلك قادة من رجال المال والأعمال وطلاب السيطرة والجاه ، وفى بلادهم طبقة من الساسة الذين يستعجلون الأمور ويضيقون ذرعًا بالأزمات ، وأمامهم فى داخل بلادهم كما فى خارجها مشكلات عنيدة يتبيغ لها الدم وتختنق بها الأكظام . فلو كانت القنبلة الذرية فى أيديهم ، وكانوا هم فى موضع تيمور أو نابليون ، لما انقطع استخدامها ولا حال حائل دون تحكيمها

فى جميع هذه المشكلات والأزمات ، ولم ينقض زمن كالذى انقضى بين أغسطس من السنة الماضية وبين هذا الشهر - دون أن تجرب مرة بعد مرة فى الملآن كما يقولون ، ولا يكتفى بتجربتها فى عرض البحار .

وأيا كان المانع من استخدامها اليوم فهو دليل على تطور فى الجنس البشرى غير مذموم .

فإذا قدرنا أن القادة العسكريين والسياسيين هم الذين يمتنعون عن استخدامها مختارين فمعنى ذلك أن قادة اليوم خير من القادة قبل بضعة أجيال .

وإذا قدرنا أن القادة يريدون استخدامها ، ولكنهم يخافون شعوبهم - فمعنى ذلك أن الشعوب اليوم أقدر على منع الضرر وتحقيق المصلحة ، وأن عناصر المحبة أعم فيهم من عناصر البغضاء .

وإذا قدرنا أن القادة وشعوبهم على السواء لا يتورعون عن تسخير هذه الآفة الجهنمية ، وأن الأمم الإنسانية هى التى تردعهم وتغل أيديهم فالأمم الإنسانية إذن وازع فعال يحسب له حساب ، ولم يكن لها قبل اليوم حساب فى أعمال الفاتحين والطغاة .

فهذه تجربة نفسية تسجل فى عدة شهور ، وتسجيلها أقرب إلى جانب الطمأنينة منه إلى جانب التشاؤم والارتياع .

تجربة أخرى من التجارب النفسية قد أسفرت عنها القنبلة الذرية منذ عام أو نحو عام : وهى أننا نغتر كثيرا بأقوال الثقات والخبراء ، إذا خيل إلينا أنها من العلم المحض والبحث الصميم .

فالواقع أن الثقات والخبراء يفكرون برغباتهم وأهوائهم كسائر الناس ، وأنهم يقررون الرأى لأنهم يرغبون فيه ، لا لأنه هو مقطع الحق والصواب فى كثير من الأحيان .

وليس هذا بالكشف الجديد .. لأنه خصلة من خصال الناس المعروفة منذ عرف الناس . ولكن التجارب التى عولجت بها القنبلة الذرية قد عرضتها للنظر فى أوسع نطاق .

فالخبراء العسكريون – بل كبار الخبراء العسكريين – منقسمون اليوم إلى معسكرين كبيرين فى جميع أنحاء المعمور : قسم يقول إن القنبلة الذرية قد أبطلت الأساطيل البحرية ، وأثبتت أن سفن القتال سلاح مفلول لا يساوى الجهود والأموال التى تنفق عليه .

وقسم آخر يقول : إن هذه القنبلة الذرية بعينها قد ضاعفت الحاجة إلى أساطيل البحر . لأنها تحوجنا إلى مدرعات أضخم من المدرعات المعهودة ، وطرادات أوفر عددًا وأعظم سرعة من الطرادات التى توجد الآن فى الأساطيل ، وأثبتت نقص الأساطيل الحاضرة فى أنواع من سفن لا غنى عن تكبيرها وتكثيرها ، وهى الكشافات وحاملات الطائرات والمدافع المضادة

للطائرات ، فلم يثبت لزوم الأساطيل البحرية قط كما ثبت لزومها بعد ظهور القنبلة الذرية .

وهكذا تثبت لنا هذه القنبلة الذرية النقيضين المتقابلين : تثبت لنا أن النفقة على الأساطيل البحرية عبث ضائع ، وتثبت لنا أن النفقة عليها لا تزال لازمة ، وأنها ينبغي أن تضاعف بعد الآن عدة أضعاف .

وسر هذا التناقض ليس بالسر العميق : سره أن القائلين بالرأى الأول هم خبراء الطيران ، وهم الذين يستخدمون القنبلة الذرية .. ولا ضير عليهم من زوال الأساطيل البحرية ، وأن القائلين بالرأى الثانى هم خبراء البحر وعليهم الضير كل الضير من زوال تلك الأساطيل ، أو من القول بنزول شأنها إلى المرتبة الثانية أو الثالثة فى مراتب الخطر والفخار .

وهكذا تتحكم الرغبة فى الرأى ولو كان القائلون به من أعاظم الثقات فى الموضوع ، ولا يهم أن تكون هذه الرغبة لمصلحة الراغب أو لمصلحة الدولة والفن الذى يخدمه . فإنما هى رغبة تسيطر على الرأى وتميل به إلى حيث تشاء ، على أية حال .

ونبادر فنقول : إن اصطباغ الرأى بالرغبة لا يبطله ولا يقدح فيه ، لأن الرغبة هى التى تستنهض همة الراغب إلى البحث والاستقصاء ، فيهتم ويبحث باهتمام ، ويرى من أجل ذلك ما لايراه الباحث الذى لا يكترث لبحثه ولا يخشى العاقبة

من نتيجته سواء من هذه الوجهة أو الوجهة الأخرى . ثم تصطدم الرغبات وتصطدم الآراء ، وينجلى الصدام بعد التجربة والعيان عن الحق الصراح .

ومن رحمة الله بالخلق أنهم يرغبون فيما يفكرون فيه ، وإلا لقعد أكثرهم عن الرغبة والتفكير فلا يصيبون ولا يخطئون ، أو لا يحققون بالصواب والخطأ رغبة تستحق العناء .

* * *

إن تجارب العلم والحرب والسياسة حول القنبلة الذرية تستنفد الجهود وتجمع الحشود وتنهك القادة والجنود فليس من الإسراف أن نسجل لها تجربة العام من الناحية النفسية ، وليس التفاؤل الذى سجلناه بحمد الله ، بالذى يتجاوز القدر اللازم . لأنه على قدر عام أو نحو عام .

الشرق بين التقليد والتقاليد

موضوعنا يدور على موقف الشرق بين التقليد والتقاليد .

وظاهر من بنية اللفظ أن التقليد والتقاليد – فى اللغة العربية – كلمتان من مادة واحدة . ولكنهما فى الاصطلاح المتفق عليه ، تدلان على معنيين متناقضين أو متقابلين . لأن العمل بالتقاليد معناه ملازمة القديم والمحافظة على السنن الموروثة ، والعمل بالتقليد معناه الأخذ بشىء جديد أو محاكاة شىء لم يسبق الأخذ به فى زمن قديم .

وقد سلك الشرق سبيلا وعرًا بين المحافظة على التقاليد والنزوع إلى التقليد ، أو بين التعلق بالموروثات والتعلق بالمبدعات الحديثة فى العصر الأخير .

فالتقاليد فى جميع الأمم قوة عظيمة السلطان راسخة الجذور ،. وهى فى الشرق ، تزداد سلطانًا بما يضاف إليها من العوامل الاجتماعية والدينية الكثيرة ، ومن خصائص الأمم الشرقية التى لا تشاركها فيها جميع الأجناس .

فالشرق – سواء فيه السلالة العربية والسلالات السامية الأخرى – قريب الصلة بنظام القبيلة وعادات الفخر بالنسب

العريق والتراث الأصيل . ومن دأب هذه العادات أن تغرى أبناء الأمم بالنظر إلى الماضى ودوام التلفت إليه فى كل مرحلة من مراحل الانتقال .

واللغة العربية هى لغة الثقافة الشرقية على الإجمال ، وهى لغةالقرآن الكريم الذى يحرص المسلمون على كل آية من آياته ، وكل حرف من حروفه . فلا جرم تصطبغ الآداب العربية بصبغة المحافظة وتنفر من التجديد الذى توجس منه خيفة على لغة الكتاب الكريم .

ويضاف إلى ما تقدم أن الشرق فى العصور الوسطى قد جنح إلى الركود بعد التقدم ، واستكان إلى الضعف بعد القوة ، وليس من شأن الضعيف أن يخترع ويبتدع ويقدم على المجهول ، بل هو فى معظم حالاته متهيب لا يجهل ، قليل الحركة فى مجال العلم والعمل على السواء .

ثم ساد النرق زمناً من الأزمان طغيان العسف والاستبداد ، فسكن إلى التقاليد التى لا تحوجه إلى رأى ولا اجتهاد، وأخطأ فى فهمها برهة طويلة كما يخطئ كل جاهل ضعيف مسلوب العزم والمشيئة .

وطالت برهة التقاليد على الشرق حتى أحس على الرغم منه بضرورة التقليد ، أى ضرورة الأخذ بالجديد .

أحس بذلك حين اصطدم بقوة الحضارة الغربية الحديثة ولمس

مكان التفوق والرجحان من أبنائها .

ولم يزل شأن المغلوب أن يولع بمحاكاة الغالب كما قال ابن خلدون . ولا سيما المحاكاة التي لا تكلفه جهد التصرف الكثير ، ولا تتجاوز حدود النقل والاقتباس اليسير .

وقد تأتى هذه المحاكاة على درجات فى اليسر وسهولة المأخذ ، وهى على هذا الترتيب : محاكاة الأزياء والنظم الرسمية ، ثم محاكاة المعيشة الاجتماعية ، ثم محاكاة العلوم والصناعات والأعمال العامة ، ثم آخرها وأصعبها وهو المحاكاة فى الرأى والشعور والنظر إلى حقائق الأشياء .

فمضى الشرقيون شوطًا بعيدًا فى محاكاة الأزياء والنظم الاجتماعية ودراسة العلوم والصناعات ، وهم لا يزالون فى أسر التقاليد .

بل كان من أثر هذا التجديد فى الأشكال والمراسم أنه رجع بهم رجعة شديدة إلى التقاليد الموروثة فى بعض الأحوال ، لأنهم تخوّفوا منه الخطر على كيانهم القومى فأجفلوا منه معتصمين بماضيهم المجيد الذى لا يكفون عن الحنين إليه . وكان من جراء هذا الاضطراب الشديد بين الماضى والحاضر أن ظهر فيهم الجامدون المفرطون فى الجمود والمتطرفون الغالون فى التجديد . وليس فى استطاعة الجامد المتشبث أن يعمل عملا نافعا فى عصر الحركة والتقدم ، ولا فى استطاعة المتطرف أن يلغى الحدود ويحطم

القيود ويتغلب على الواقع المعزز بتراث المئات بل الألوف من السنين . فانفتح الطريق بين الفريقين المتناقضين لفريق ثالث هو أقدر على العمل وأقرب إلى الإنجاز ، لأنه ينظر إلى حقيقة الماضى ولا يستخف بها وينظر إلى حقيقة الحاضر ولا يغفل عنها . وذلك هو فريق الموفقين بين الأخذ بالجديد والمحافظة على التقاليد .

وامتزجت حركة هؤلاء الموفقين بالدين فى كل مكان وفى كل شعبة من شعب التفكير ، ولكنها مع هذا لم تخل من الصبغة القومية فى كل بيئة شرقية على حسب مزاجها الموروث .

ففى الهند ظهر غلام أحمد القاديانى ، ومذهبه شبيه بمزاج البلاد التى نشأت فيها عقيدة تقمص الأرواح وانتقال الروح من جثمان إلى جثمان .

وفى إيران ظهر مرزا على محمد الشيرازى ، ومذهبه شبيه بمزاج البلاد التى نشأت فيها الباطنية وآمن فيها الناس من قديم الزمن بعقيدة الحلول وانتظار الإمام الذى يطهر الدنيا من الرجس والشر حيناً بعد حين .

وفى البلاد العربية ظهرت الدعوة الوهابية ومذهبها شبيه بمزاج البلاد التى ألفت خشونة العيش وأنكرت الرموز والإشارات وتعلم أبناؤها كراهة الألغاز والمعميات فى وضوح الصحراء .

وفى مصر ظهرت دعوة الإمام محمد عبده ومريديه ، ومذهبهم سببه بمزاج البلاد التى تفسر القوانين الإلهية والنصوص الشرعية كما تفسر أوامر الحكومات ، أو هو مزاج مصر التى جاءها بالنبوءة فرعونها إخناتون . وتقابلت فيها شريعة الأرض وشريعة السماء .

وقد كان هذا الامتزاج بين طبائع الأمم وطبائع الحركات الإصلاحية أدل دليل على دبيب الحياة فيها ، وأن أرواح الشعوب قد نهضت للحركة والتقدم فى سبيل الاستقلال بالرأى والشعور ، ولولا أنها حركات حية طبيعية لما تنبهت فيها أرواح الشعوب والأجناس على هذه الوتيرة ، ولكانت تقليدًا متشابهًا لا تصرّف فيه .

وأعان الشرقيين على الاستقلال بالرأى والشعور أن الحضارة الغربية نفسها قد أحست بعيوبها وأكثرت من نقدها واستنهاض القرائح والنفوس إلى إصلاحها ، وأنها قد تشعبت أمام أبنائها وأبناء الأمم الأخرى شعبًا متفرقة فى الأدب والفن وأساليب الاجتماع . فعلم الشرقيون أن الحضارة الأوربية إذن ليست وحيا من السماء ولا ضربًا من التنزيل . وأنها لا تؤخذ بنصها جملة واحدة أو تنبذ بنصها جملة واحدة ، ولا ضير من تنقيحها وتعديلها على حسب الأقاليم والبيئات .

وهكذا ابتدأ دور الاستقلال بعد دور الفتنة بالقديم ودور الفتنة

بالجديد ، ومضى الشرق شوطًا غير قصير فى هذا الدور المبشر بالخير والارتقاء .

قلنا فى مفتتح المؤتمر اللغوى بالقاهرة عن الاتجاهات الحديثة فى الأدب العربى : « إننا نعبر الآن فترة البداية فى الاستقلال والثقة بالنفس ، وإن هذا الاستقلال يتجلى حينًا فى التحرر من القديم ويتجلى حينًا آخر فى التحرر من الجديد . فقد مضى زمان كان يكفى فيه أن يكون الشىء قديمًا ليحكى بلا تصرف ولا مراجعة ، ومضى بعده زمان كان يكفى فيه أن يكون الشىء أوربيًا أو حديثًا ليحكى بلا تصرف ولا مراجعة ... ومن الناس اليوم من يوصف بالابتكار لأنه يستمسك بقديم كان وقفًا على الجامدين ، ومنهم من يوصف بالجمود والمحاكاة لأنه يعجل إلى الجديد على سنة التقليد .. » .

هذا الاستقلال هو ميزان الاعتدال بين التقليد والتقاليد ، وبين دعوة الموروثات ودعوة الخلق والابتداع .

فلا القديم كله نافع ولا البدع الجديدة كلها نافعة ، ولكن النفع كل النفع فى الحس الصادق والرأى الجرىء والعزيمة البصيرة ، لأنها تستبقى ما هو جدير بالبقاء من القديم والجديد على السواء .

وإذا احتفظ الشرق بملكة الاستقلال فى الحس والرأى فلا حاجة به إذن إلى الثورة على تقاليده الغالبة من أى نوع

كانت ، سواء منها تقاليد العقيدة وتقاليد الفنون والآداب .

لأن تقاليد العقيدة ليست من قبيل الدراسات العلمية التى تعرض على المعمل والمسبار فترة بعد فترة . وإنما هى ذخيرة شعورية تعمر الضمير فتعينه على مراس الحياة وتلهمه حسن المعاملة ومكارم الأخلاق . وعند الشرق فى هذه الذخيرة الشعورية ما يصلح للحياة العصرية ويقبل الحقائق العلمية . ولعله عصمة له من بعض مذاهب الماديين التى تقوض دعائم الآداب الإنسانية جميعًا باسم العلم وهى براء من العلم والعلم منها براء .

فلا حاجة بالشرق إلى الثورة على عقائده الصالحة التى خلصت من شوائب عصر الجمود وتهيأت للتوفيق بينها وبين حقائق الحياة فى العصر الحديث ، وليس التجرد من هذه العقائد بخير له من المحافظة عليها والتبصر فيها ، لأنه لن يستغنى عن الذخيرة الشعورية بحال من الأحوال ، ولن يخلقها من جديد إذا هو استغنى عنها فى نزوة من نزوات الجموح والضلال .

أما تقاليد الشرق فى عالم الآداب والفنون فكل ما عارض منها ملكة الاستقلال فى الحس والرأى فهو ذاهب لا محالة .. بل هو قد عبر نصف الطريق فى الذهاب إلى غير رجعة ، وما بقى من تقاليده موافقًا لاستقلاله فى حسه ورأيه فهو زينة الفن وحلية الأدب . لأن ثمرات القرائح والأذهان إنما تجمل بالتنوع بين

الشعوب والعصور ولا تفتأ كثمرات الربيع وازدهاره : أجمل ما تكون إذا غنيت فى رياضها وعلى أشجارها بتعدد الألوان والأشكال ، وتنوع النسمات والعطور .

وأيًّا كانت عثرات الشرق فى سبيل الاستقلال بالحس والرأى فهى خير من سهولة مقادة للتقليد أو سهولة مقادة للتقاليد . لأن الرجل الذى يهتدى بقيادة السلف أو الخلف إنما يهتدى بعينى غيره وأذنيه . وخير له أن ينظر بعينى رأسه ويسمع بأذنيه ثم يتعثر ما شاء حتى يأنس العثار . لأن العثار ثمن غير كثير على نعمة السمع والبصر ، أو على نعمة الاستقلال بالحياة ، ولن يكون الشرق المستقل إلا خيرا من الشرق الذى قضى ردحًا من الدهر بين التقليد والتقاليد .

مختارات وذكريات

رأيت أن أجمع بين الموضوعين فى حديث واحد . لأجعل الذكريات معرضا للنقد وبيان وجه الخلاف بين النظرة القديمة إلى الشعر والنظرة الحديثة إليه ، وهى النظرة التى شرحنا الغرض منها حين دعونا منذ ثلاثين سنة إلى تجديد الشعر وتجديد الأدب على التعميم .

وقد حاولت فى الاختيار من دواوين شعرى أن أتغلب على صعوبتين : إحداهما أننى أختار من ثمانية دواوين تشتمل على مئات القصائد ، ومن قصائدها ما يبلغ المئات من الأبيات ...

والصعوبة الثانية أن الرجل الذى يفاضل بين قصائده كالرجل الذى يفاضل بين أبنائه وبناته ، وليس الأب - فى أكثر الأحيان - خير حكم بين ذريته ، فإنه قد يعطف على الضعيف منهم ويترك القوى لشأنه مستغنيا عن عطفه و حنانه .

وقد تغلبت على الصعوبتين بالاكتفاء من الدواوين الثمانية بالثلاثة الأخيرة منها وهى (هدية الكروان) و (عابر سبيل) و (أعاصير مغرب) وحكمت فى ذلك تاريخ الصدور وحده ، غير معتمد على المفاضلة والتفضيل .

ثم لجأت مع صديق إلى نوع من القرعة فى الاختيار بين أرقام الصفحات بغير نظر إلى المقاصد والأبواب ، فكان عمل المصادفة هنا أرجح من عمل الاختيار .

أما الذكريات الأدبية فإننى أسوق منها ما يدل على جوانب الاختلاف بين المدرستين ... مدرسة الأقدمين ومدرسة المحدثين كما شرحناها مع زملائنا فى الكتب أو المقالات .

زرت السودان منذ سنوات ثلاث فدعانى نادى الخريجين فى الخرطوم إلى سهرة حافلة ، ظننت للوهلة الأولى أنها سهرة أدب وفكاهة ، تجمع بين الطرائف والمحاورات والأناشيد أو الألعاب التى يتسلى بها المهذبون فى سهرات الأندية .

ولكننى لم أقض نصف ساعة من السهرة حتى علمت أننى أنا موضوع السهرة الوحيد أو ضحيتها الوحيدة ! فمن نشيد الافتتاح إلى الأبيات التى تغنى بها المنشد الأديب إلى المحاضرات والمساجلات - لا شىء غير العقاد الشاعر أو العقاد السياسى أو العقاد الأديب،أو العقاد الإنسان ، أو العقاد المارد الجنى الذى يتشكل بتلك الأشكال والأقانيم .

صبرت على هذه الحملة المنظمة بضع ساعات . فلما انتهت ووجب أن أقول كلمة قبل الختام .. قلت : « أيها الإخوان .. هبوها تحية فلابد أن أحييكم بمثلها أو بأحسن منها ، أوهبوها مكيدة فإننى ممن يدينون بعقيدة العين بالعين والسن بالسن

والجروح قصاص ، ولست ممن يدين بالتجاوز والصمت فى مثل هذا المقام ..

أيها الإخوان .. من وضعنى على المشرحة سأضعه الآن على المشرحة بعينها ، وكما قال فى سأقول فيه .. وواحدة بواحدة جزاء » .

وكان من خطباء الحفلة أديب ألمعى تكلم عن دواوينى فأعجبتنى منه لفتات نافذة إلى بعض الدلالات النفسية ، ولاحظ فيها لاحظه أننى أحب أن أقول غير ما قاله الأقدمون ، وأننى أخالف المألوف المتفق عليه استقلالا بالرأى وطلبًا للمخالفة ، ولهذا أصف الحسان بغير أوصافها المعهودة وأبتدع معانى من الغزل تناقض المأثور عن جميع الشعراء ، ومما استشهد به الأديب على ذلك أن الشعراء جميعًا يصفون ليلة الوصل بالقصر ويقولون إنها تمر من مغربها إلى فجرها كلمح بالبصر .. إلا العقاد فإنه يصفها بالطول ويقول فى وصفها ..

طالت ولا غرو فالجنات خالدة وفى الوصال من الجنات ألوان

فلما تناولت هذه الملاحظة بالرد والمناقشة قلت : إن شعراء العربية جميعًا أحبوا امرأة واحدة من أقدم عصور الجاهلية إلى القرن التاسع عشر للميلاد . فالعيون التى يصفها امرؤ القيس هى العيون التى يصفها ابن زيدون .. والقوام الذى افتتن به النابغة الذبيانى هو القوام الذى افتتن به العباس بن الأحنف ،

والثغر الذى قبله عمر بن أبى ربيعة هو الثغر الذى قبله بهاء الدين زهير ، وربما عاش حتى قبله ابن الساعاتى من ثمانين سنة .. والبكاء من الهجر هو البكاء ، والشكوى من خلف الوعود هى شكواه فهل الام إذا بحثت لى عن امرأة أصفها غير هذه المرأة التى أحبها ألف رجل أو يزيدون ..

واستطردت من ذلك إلى المديح والهجاء والرثاء فقلت .. إن الشعراء الأقدمين مثلاً يرثون عظيماً واحداً قلما تختلف صفاته بين شاعر وشاعر . فما حاجة هذا العظيم إلى رثائى وقد شغل الشعراء ألف سنة برثائه .

أما ليلة الوصل وطولها وقصرها فقد كان تفسيرى للمعنى الذى قصدته أن الشعور الإنسانى يوصف من جوانب متعددة لا من جانب واحد . فيصح أن توصف ليلة الوصل بالقصر لأن العاشق لا يود أن تطوى ولا يستريح إلى انقضائها . ولكن الليلة التى تملأ عمراً طويلاً بذكرياتها وبها يستعاد فى الخاطر من لذاتها وأحاديثها قد توصف بالخلود على هذا المعنى وقد تطول فى صورتها النفسية حتى تعدل وحدها أيام الحياة ولياليها .

لهذه المناسبة أقول (إن آفة الشعر القديم فى جملته هى قلة الملامح والقسمات) فلا تفرقة فيه بين ممدوح وممدوح ولا بين معشوقة ومعشوقة ولا بين غرام وغرام ولا بين منظر ومنظر ، وإنما يتفاوت الشعراء على الأغلب الأعم ، بحظهم من البلاغة فى

تكرير الوصف الواحد مرات بعد مرات ، وأجيالاً بعد أجيال .

أما الذى نريده نحن فهو تمييز هذه الملامح بين جميع أطوار النفوس الحية . لأن الحياة لا تكرر ملامحها وإنما تكررها القوالب المصنوعة التى تفرغ فيها التماثيل المحكية . وقد تكون هذه التماثيل أجمل صورة فى مرآى العين ولكنها لا تستجيب لشعورك بها استجابة الأحياء .

وفى الجزء الرابع من ديوانى - أشجان الليل - أبيات تصف حالة المعشوقة التى تريد من عاشقها ألا يحاسبها على الوفاء وأن يستريح من شكوكها ليستمتع بها غير حافل بخيانتها .. وفى هذه الأبيات أقول :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى ... وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسما مستباحا وطالما ... لقيتك جم الخوف جم التردد
رويدك إنى لا أراك مليئة ... بلذة جثمان ولا طيب مشهد
إذا لم يكن بد من الحان والطلى ... ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى

فلما صدر ديوانى الأخير (أعاصير مغرب) كانت فيه الأبيات التالية :

لا تخدعينى يابنيـة ... بالوفاء من اللسان
خنا وخنت ولا أقو ... ل سلى فلانة أو فلان
ذهبت خيانتنا معًا ... والآن نحن الباقيان

فإذا بناقد أديب يقول فى نقد هذه الأبيات وأمثالها .. أين هذا من ذاك وكيف نفرق بين نغمة الديوان الجديد فى هذا المعنى ونغمة الديوان القديم .

إن ناقدنا الفاضل كمن يضع صورتين لرجل واحد : صورة فى العشرين وصورة فى الخمسين ثم يقول .. أين هذا من ذاك ؟ وأين الرجل الذى نراه هنا من الرجل الذى نراه هناك ؟

وإنما سرت إلى الناقد عادة النظر إلى نقد القوالب أو نقد النماذج فنسى أن الشعور المطبوع يتغير بين سن وسن ، وبين معشوقة ومعشوقة ، وبين آداب فترة وآداب فترة أخرى ، وبين عاطفة وعاطفة ، فلابد فيه إذن من اختلاف التعبير واختلاف التصوير .. وهذه النظرة فى نقد الشعر والشعراء هى التى نريد أن نصححها بما تسميه تصوير (الملامح) المختلفة على اختلاف الأحوال والشخوص والموضوعات ..

ونظمت منذ عشرين سنة قصيدة قلت فيها أصف بعض الحسان :

ذهبى الشعر ساجى الطرف حلو اللفتات

ونظمت هذا المعنى قبل ذلك فإذا ببعض الناقدين يتصايحون .. إن هذا الوصف معيب لأن شعراء العربية لم يستحسنوا الشعر الأصفر وفضلوا عليه سواد الشعر فى النساء المعشوقات ..

ومثل هذا النقد لا غرابة فيه إذا أخذنا بالنماذج والقوالب وتجاوزنا عن الملامح والشيات ، لأن الشاعر - عند أصحاب النماذج - إنما يصف النموذج المتفق عليه ولا يصف ما يحب أو يستحسنه أو يراه .

وهنا مفترق الطريق بين المدرستين : مدرسة الأقدمين ومدرسة المحدثين . فالشاعر على الطريقة القديمة نسخة من (كتاب إنساني) واحد ، وإن كان أحيانًا نسخة مصقولة الورق محكمة التجليد نظيفة الطبع جميلة الرواء . أما الطريقة العصرية فينبغي أن يكون كل شاعر فيها كتابًا مستقلا بألفاظه ومعانيه وملامحه وشياته . ولا ندعي أن هذا الكتاب أجمل من تلك النسخة في جميع الأحوال وإنما ندعي فضل الاستقلال وليس هو بقليل في سجل الأفضال .

ننتقل من هذه الذكريات والملاحظات إلى المختارات بغير تبويب ولا انتقاء ولا أدعي لها كما قدمت فضلاً غير أنني أعبر بها عما وجدته في ذات نفسي وإنني لا أحكي بها أحدا غيري ، وقد تحسب لي بعد هذا أو تحسب على كما شاء القراء .

الصدار

هذه القطعة في وصف هدية وهي صدار - أو صديري - مما يلبس في الشتاء نسجته يد عزيزة :

هنا مكان صدارك هنا هنا في جوارك

هنا هنا عند قلبى يكاد يلمس حبى
وفيه منك دليل على المودة حسبى
ألم أنل منك فكرة فى كل شكة إبرة
وكل عقدة خيط وكل جرة بكرة

* * *

هنا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك
والقلب فيه أسير مطوق بحصارك ...

* * *

هذا الصدار رقيب على الفؤاد قريب
سليه ، هل مر منه إلى طيف غريب ؟

* * *

نسجتـه بيديـك على هدى ناظريك
إذا احتوانى فإنى مازلت فى أصبعيك

* * *

بيت أجرة

وفى القصيدة التالية بيت من بيوت السكن بالأجرة يتحدث عن ساكنيه :

بنى الإنسان لن أحفل فى دهرى بإنسـان
ألم أعـرفكم طـرًّا فلم أسعد بعرفانى
أتـانى أول القـوم وما استوفيت بنيانى

وما أرهفت آذانا ولم آنس بسكان
وأصغيت على مهل فطاشت كل آذانى
هما زوجان أو شيطا نة لاذت بشيطان
وقد عاشا وفيين بتقدير وحسبان
وراحا – هكذا يحكون – فى روح وريحان
وما أبصرت من هذا ولا من ذاك فى آن
سوى خوانة خرقا ء تقرى عرق خوان
إذا ما ضحكا يوما على غش وبهتان
حسدت البيد والأطلا ل فى غيظى وكتمانى
وأشفقت من النقمة أن تهتز أركانى

* * *

وجاء الساكن الثانى وبئس الساكن الثانى
يراه الناس ذا مال وأفراس وغيطان
وقد شوهنى بخلا وأعرانى وأعيانى
وقد صيرنى سجنا ومنه كان سجانى
فلما طال بى عهدا ولم أسعد بهجران
وددت لو أن لى فى كـ ـل جحر ألف ثعبان
بديلا منه أرضاه وأحبوه بغفران
وأنفث سما أو يتـ ـقى شرى ويخشانى

إلى أن آذن أجرى　　ولم يظفر بنقصان
فأخلانى ولن أنسى　　سرورى يوم أخلانى

* * *

وكان الساكن الثالث　　ذا عـز وسلطان
فما ارتبت بأن العز　　والـذلـة سيـان
وما ألفيته إلا لئيما　　جـد غـفـلان
ضعيفًا يستر الضعف　　بـطغيـان وعـدوان
وكم أذعن للطاغى　　عليـه شر إذعـان
إذا مـا لقى النا　　س بكبر منه طنان
فما أصغر ما ألقاه　　منـه بين جـدرانى

* * *

وأما رابع القوم ...　　فـذو علم وتبيـان
حشا بالورق اليابس　　والأخضـر حيشـانى
فما لى موضع فى الأرض　　أو من فوق عمدان
وما لى مطبخ أو مخدع　　أو بهـو ضيفـان
ولا زاويـة إلا ...　　وفيها الكتب تلقانى
أبى للنفس دعواها　　ولم يسمـع لجثمان
فلا سهرة أحباب　　ولا جلسة ندمـان
فـما أجهله بالخلق　　ذاك العـالم العانى
أبين الناس يحتاج　　إلى علم وبـرهـان

وهم عميان ظلماء سروا فى إثر عميان
كثير لك يا إنسا ن فى دنياك عينان

* * *

وأما الخامس الجانى فناهيك بشهوان
فما زودنى إلا ... بأعطاف وأبدان
وهتاف بألحان وسمار على الحان
إذا أمسيت مسانى بأشكال وألوان
على الأبواب مايرضيك من حسن وإحسان
ومن صون لأسماع ومن غض لأجفان
فلا تنظرهم ثمة وانظر بين أحضانى
فيا لله كم فى الأرض من غى وغيان
وكم فى القوم من مخدوع آباء وإخوان
وأزواج وأصهار وخلان وأخدان
لو أنى قلت ما أدرى لهدوا كل أركانى
فنعم الصمت والحكمة يا صخرى وصوانى

يوم لقاء

وفى الشوق إلى يوم لقاء ..

شوقى إليك يكاد يجذب لى غدا من وكره ويكاد يطفر من دمى
أسرع بأجنحة السماء جميعها إن لم يطعك جناح هذى الأنجم
ودع الشموس تسير فى داراتها وتخطها قبل الأوان المبرم

ما ضر دهرك إن تقدم واحد ... يا يوم من جيش لديه عرمرم

* * *

الحرب

قالوا هى الحرب فصد ... بـــه الشفـــاء يؤمـــل
قلنا نعم فصد عرق ... حى وإعفـــاء دمـــل

إلى تمثال سعد

ومن قصيدة أخاطب فيها تمثال سعد زغول :

الروح فى وادى الكنانة حائم ... وجلال شخصك فى النواظر قائم
ماغاب منك سوى مثال عارض ... يمضى ويخلفه المثال الدائم
شرفاً أبا الفلاح مااستفتحت من ... همم وما استتلى بعزمك عازم
لك لا تزال ولن تزال رسالة ... ما للعظائم إن بدأن خواتم

نهاية المصيف

تعودنا تربيع الفصول السنوية فى عصرنا الحديث . فهى عندنا الآن أربعة فصول فى العام : هى الربيع والصيف والخريف والشتاء .

أما فى مصر القديمة فقد كانوا يعرفونها ثلاثة فصول ، على حسب مواسم الفيضان والزرع والحصاد ، وكان هذا التقسيم – بالنسبة إلى المصريين – أصح وأضبط فى حسابهم من الوجهة الجغرافية ومن الوجهة الجوية ، لأنه يوافق أعمال الزراعة ، ويوافق إحساسهم بالانتقال بين مواسم الاعتدال والبرد والحرارة .

ولا مزية لتقسيم السنة عندنا إلى أربعة فصول ، إلا أنه تقسيم صحيح من الوجهة الفلكية ، وأنه يوحد الكرة الأرضية كلها فى نظام واحد .. فلعله بشير بالعالم المتحد فى المصلحة والشعور .

لكننا فى الواقع لا نحس بانتهاء الربيع فى الثانى والعشرين من شهر يونيو ولا بانتهاء الصيف فى الثانى والعشرين من شهر سبتمبر . بل ينتهى الصيف عند الفلكيين ، ولا نزال بعده نتنفس

من الهواء أنفاسه الصيفية ونلمس أخطاء الفلكيين النفسية أو الجسدية ، فى كل قطرة من قطرات العرق التى ترفض من الأجسام .

وأيا كان الفارق بين إحساسنا وحساب الفلك ، فقد اتفقنا عل أن الصيف قد انتهى منذ أيام ، وأن موسم الاصطياف قد آذن بإغلاق أبوابه ، ولو استفتحها الكثير من عشاق الاصطياف على حسابهم الخاص لا على حساب العرف ولا على حساب الفلكيين .

وقد أخذنا نسمع الناقدين يشيعون الموسم بما تعودوه من الملاحظة أو ضروب التنديد .

وفى المصيف متسع لكثير من الملاحظات ، وكثير من المؤاخذات ، لأنه يأخذ من طبيعة البحار فى كل شيء حتى فى العيوب ، ولا شك أن الناقدين على حق حين يعيبون الشطط فى أحوال المصيف ، سواء من ناحية الأخلاق أو من ناحية الصحة أو من ناحية الاقتصاد ، أو من ناحية الذوق والآداب . ولكنهم ليسوا على حق فى كل شيء ، وليسوا بمنجاة من الخطأ فى كل ما يقولون ، ولعل الموسم فى حاجة إلى كلمة إنصاف بينه وبين ناقديه . وإذا عرضنا أقوال المنتقدين نفسها على محك الانتقاد فلعلنا نهتدى إلى كلمة الإنصاف المطلوب .

ونحن نصحح القول فى أحوال المصطافين إذا صححنا القول

فى أغراضهم من الاصطياف .

فلماذا يذهبون إلى المصائف بالمئات وبالألوف ؟ أللصحة ؟ أللراحة ؟ أللرياضة ؟ ألتطبيق قوانين العرف والأخلاق ؟ .

لا نظن أن الاصطياف يقوم على غرض من هذه الأغراض . ويخيل إلينا أن المصائف تقفر من تسعة أعشار روادها لو قصرناهم على طلاب الصحة ، أو الراحة ، أو الرياضة ، أو رعاة العرف والأخلاق .

فالناس - إلا القليل منهم - لا يفكرون فى الصحة إلا حين يضطرون إلى التفكير فيها ، ولا يلتمسون العلاج من متاعبهم الجسدية إلا إذا أكرهتهم على معالجتها . وليست المصائف أفضل الأماكن للشفاء والاستشفاء ، ولا الوسائل الطبية فيها أوفر الوسائل وأدعاها إلى الإقناع والاستدعاء ، وقلما رأينا إنساناً زاد وزنه فى الصيف ، ولوطلب المزيد .

والناس لا يستريحون فى المصائف وإن خلوا من الأعمال والتكاليف . فمنهم من ينام فى الأيام الأخرى إلى الضحى ويستيقظ فى المصيف قبل طلوع النهار ، ومنهم من يأوى إلى فراشه فى الساعة العاشرة أيام العمل ، ولكنه يسهر إلى الفجر فى المصيف .

أما الرياضة فلا يجرى على قواعدها أحد من رواد الشاطئ ولو كان من الرياضيين . ولعل الأصح هنا أن نقول إنهم يمارسون

الحركة ولا يمارسون الرياضة ، لأن أجهل الناس بالرياضة هناك هم الذين يقودون الآخرين فى حركاتهم ووثباتهم ، وهم القدوة التى يقتدى بها العارفون بالرياضة وغير العارفين .

ولا نطيل القول عن رعاية العرف والأخلاق . فإنك إذا راقبت الجمهور الغالب من المصطافين بدا لك أن القاعدة هناك هى إلقاء ما يمكن إلقاؤه من قواعد العرف ، ومخالفة ما تمكن مخالفته من قواعد الأخلاق .

فلماذا إذن تقصد المصائف إن لم تقصد للصحة ولا للراحة ولا للرياضة ، ولا لالتزام العرف والآداب العامة ؟

إنها تقصد للطلاقة من القيود .

إنها تقصد لأن حياة الأعمال قيود ، وحياة « الإجازات » إعفاء من القيود .

وفى ذلك شىء من المنطق لا ريب فيه ، فإن الطلاقة هى المعنى الوحيد الذى يقابل معنى التكاليف والقيود ، ومن حقها أن تطلب وأن يحسب لها حساب ، ومن حقها أن تصبغ المصائف بصبغتها لأنها هى الصبغة الملازمة لها قبل كل صبغة ، فلا معابة فيها إلا حين تخرج من حدود الذوق أو تخرج من حدود الاعتدال ، لأن الإسراف معيب فى كل شىء وقد يعاب فى الفضائل المتفق عليها . لأن الإسراف فى العدل قسوة ، والإسراف فى الرحمة مرض ، والإسراف فى الكرم سفه ،

والإسراف فى العقل جمود ، والإسراف فى الطلاقة خبال أو فوضى .

فالناقد الذى يعيب الآداب على الشواطئ يجب أن يسلم للطلاقة بحقها قبل أن يعيب ، ويجب أن ينتظر على الشاطئ شيئا غير الذى ينتظره فى موسم الأعمال والتكاليف ، وإلا فاللوم عليه هو فى سوء الانتظار ، وفى التسوية بين موسمين لن يتساويا فى طبيعة الأشياء ، وهما موسم التكاليف وموسم الإعفاء من التكاليف .

لكن الطلاقة - بعد هذا - نوعان أو صنفان : طلاقة العبيد ، وطلاقة الأحرار .

فالعبد يخرج من قيود العرف كما يخرج السجين من أسواره وحراسه : يخرج منها لأنها قيود سيده الذى وضعها لمصلحته لا لمصالح عبيده . يخرج منها خروج العدو من أسر عدوه ، والأجير المسخر من شقاء التسخير والإذلال .

أما الحر فلن يخرج من قيود العرف هذا الخروج . لأن قيود العرف من وضعه هو وليست من وضع سيد مسيطر عليه ، يسخره لمنفعته ولا يبالى بعد هذه المنفعة بمشيئة لعبده ولا كرامة .

طلاقة العبيد من العرف والحياء طلاقة المحروم الممسوخ الذى ليس له عرف ولا حياء . بل يعلم أن العرف المفروض عليه من صنع غيره ، وأن الحياء المفروض عليه مطلوب لمصلحة غيره .

أما طلاقة الحر فهى انتقال من مشيئة إلى مشيئة ومن حالة لها مناسبة إلى حالة لها مناسبة مثلها . وكل ما فى الأمر أن الاختلاف بينها اختلاف فى المواقيت والمواعيد ، وليس اختلافا فى الطبيعة وسليقة النفس ودخيلة الضمير .

فالعبد ينطلق من سيد .

والحر ينطلق من نفسه لنفسه ، فلا ينسى حقوق نفسه فى هذا الانطلاق ، لأن هذه الحقوق هى مصدر العرف والواجب والحياء .

ليس من العقل أن يتحكم العقل فى كل كبيرة وصغيرة من شئوننا ، وكل لحظة أو برهة من أوقاتنا ، فإن العقل الذى ينسى دوافع الحياة كل النسيان عقل فيه نسيان كثير ، وفيه خطأ كثير ، وفيه عجز كثير عن تدبير دوافع الحياة .

والعقل كالعين . فنحن نطبق العين فى الرقاد ، ونغمض العين إذا كلت أعصاب النظر ، وتتقى الغبار بعض الأحيان بالإغضاء .

وكذلك العقل لابد له من غمضات كغمضات العيون ، ولابد للعاقل من حرية يحفظها لنفسه فى مواجهة عقله ، فضلاً عن سائر العقول .. وإلا فهو فى عقله مصاب .

ولكن الفرق عظيم بين فقد النظر من مرض فيه ، وفقد النظر إلى حين من إغضاء مقصود .

والفرق عظيم بين العقل الذى لا يردع صاحبه من عجز فيه ، وبين العقل الذى يرسل العنان لنفسه تارة ويقبضه تارة أخرى ، لأن العنان على كلتا الحالتين فى يديه .

فإذا كانت الطلاقة على المصائف طلاقة عبيد فهى ذميمة منافرة للذوق والأدب ، وهى بغيضة ككل صفة تتمخض عنها طبائع الاستعباد .

وإذا كانت الطلاقة على المصائف طلاقة أحرار ، فهى مطلوبة فى أوقاتها ، كما تطلب التكاليف فى أوقات التكاليف .

بل نقول أكثر من ذلك إنها حق من أوجب الحقوق ، لأن الحقوق تأخذ كما تعطى ، وتطلق كما تقيد ، وتصاحب ساعات الفراغ كما تصاحب ساعات الشغل والجهاد .

ولكننا نستحقها بشفاعة واحدة لا شفاعة غيرها ، وهى قضاء حقوق العمل ، والنهوض بأعباء التكاليف .

وها نحن نودع موسم المصيف .

وها نحن نستقبل موسم الأعمال والتكليف .

فلا نغلو فى لوم المصطاف إذا استوفى نصيبه من طلاقة الأحرار ، ولكننا نرجو أن يستحق الموسم القادم بعمل يشكره له ضميره ، ويشكره له وطنه ، ويليق بالحر الطليق .

أزمات الشعوب النفسية

سمينا عصرنا هذا بأسماء كثيرة تنطبق عليه .

سميناه عصر النور لأنه العصر الذى انتشرت فيه العلوم التجريبية ، وسميناه عصر الكهرباء لأنه عصر القوة الكهربائية ، وسميناه عصر الطيران ، وعصر المرأة وعصر الدهماء ، ونسميه اليوم عصر الذرة وعصر الرادار ولا نتعدى الواقع فى هذه التسمية .

ولكننا إذا سميناه عصر « النفسيات » لم نخطئ لذلك سببًا كأقوى ما تكون أسباب الأسماء . لأن البحث فى « علم النفس » لم ينتشر فى عصر من العصور كما انتشر فى هذا العصر الحديث .

طبقنا علم النفس على الفرد فى جميع حالاته : على الفرد الصحيح وعلى الفرد المريض : على الفرد العظيم وعلى الفرد الحقير ؛ على الفرد وهو طفل ؛ وعلى الفرد وهو رجل ، وعلى الفرد فى جميع المعارض والأعمال .

ثم طبقنا علم النفس على الجماعات ، من أمم وطوائف وطبقات ، وتوسعنا فى بيان الفروق بين النفس الجماعية والنفس

الفردية . فاتفقت الأقوال على أن الظواهر النفسية تختلف بين الفرد والجماعة ، أو تختلف بين الفرد على حدة والفرد فى الجمهور والزحام .

لكننا نريد أن نلمس فى هذا الحديث جوانب الشبه بين الفرد والجماعة فى حالة واحدة ، هى حالة الأزمات النفسية . فإن التقريب والتبسيط فى هذه الأمور يفيدان فائدتهما الكبرى ، ويدنوان بنا من حصر العلة وتوحيد ملاحظتها ، وكلما نجحنا فى توحيد الأسباب نجحنا فى الوصول إلى السبب الصحيح .

هناك ظواهر كثيرة تتشابه فيها « الأزمات النفسية » بين الفرد والجماعة كل التشابه ، ونستطيع أن نفهمها هنا وهناك على نحو واحد ، ونلم فى هذا الحديث ببعض الأمثلة على تلك المشابهات .

من تلك الظواهر أن « الأزمات النفسية » ترجع فى الجماعة ، كما ترجع فى الفرد ، إلى الحيرة ، ولا ترجع إلى سوء الحال وحده .

فمهما اشتد سوء الحال فهو لا يفضى بالجماعات ولا بالأفراد إلى أزمة نفسية ، ما لم تصحبه حيرة تمتنع فيها سبيل الهداية .

هناك مثلا رجل فقير ، جائع ، عار ، محروم ، ولكنه قانع صابر ، أو شاعر بأنه مستحق للفاقة والحرمان ، فلا أزمة هناك .

متى تبدأ الأزمة النفسية ؟

تبدأ حين يحار بين الصبر والقناعة ، وبين طلب الرزق من طريق لا يستقر عليه : من طريق السرقة أو المخاطرة أو التفريط فى الشرف والكرامة أو الخروج على المألوف والعادة .

فتوجد الأزمة النفسية مع الحيرة ، ولا يكفى لإيجادها مجرد سوء الحال ، ولهذا يثور رجل يكسب عشرين قرشا فى اليوم ولا يثور رجل يكسب عشرة قروش . لأن الفرق بينهما فرق فى الحيرة وليس فى العسر أو الحرمان .

أو لهذا يشعر الناس فى الجيل الحاضر بالأزمات النفسية ، ولم يشعر الناس قبل جيل أو جيلين بأمثال هذه الأزمات لأنهم يضيقون اليوم ويحارون وكانوا بالأمس يضيقون ويصبرون .

كذلك الأمم فى أزماتها النفسية : تشعر بالأزمة حين ترتاب وتحار ، وليس من الضرورى أن تشعر بها حين تشتد بها الحال ، أو تضيق بها أسباب المعاش .

تشعر الأمم بالأزمات النفسية حين تتردد بين نظام ونظام ، وبين خطة وخطة ، وبين عقيدة وعقيدة ، ولا تشعر بالأزمات النفسية وهى ترى أمامها طريقا واحدا لا تعدوه .

تشعر بالأزمات النفسية حين تتردد بين الديمقراطية والسلطة الفردية ، أو بين الحرية والدكتاتورية ، أو بين زعامة العلية وزعامة الدهماء .

ولكنها لا تشعر بالأزمات النفسية إذا استطاعت أن تختار طريقها أو عرفت كيف تختاره ، ولو تفرقت بها الطرق أحزابًا أحزابًا أو جماعات جماعات .

هذه ظاهرة لا تختلف فيها أزمات الفرد وأزمات الجماعة وهى ظاهرة « الحيرة » فى الحالتين .

وظاهرة أخرى أن الأزمة النفسية تتراخى فى الفرد والجماعة بالتعبير وإزالة الأسباب .

فالرجل الذى يشكو ، ويعلم ما يشكوه ، ويستطيع أن يعبر عن شكواه ، لا يقال إنه فى أزمة نفسية .

والأمة التى تملك حرية التعبير تعالج الأزمات النفسية بالتفريج والتنفيس .

ولكن التعبير فى الحالتين علاج مخفف موقوت ، ولا يحسم الداء كل الحسم إلا العلاج الصحيح ، وهو العلاج الذى يقتلع الأسباب من جذورها ويغنى الأمة عن طلب التفريج والتنفيس .

ومن المشابهات بين أزمات الفرد وأزمات الجماعة أن الظواهر النفسية فيها - كثيرا ما تنبعث من أسباب جسدية مجهولة أو معلومة .

فالرجل يشكو من كسل الكبد مثلاً فيسوء ظنه بالحياة ويسوء ظنه بالصداقة والأصدقاء .

والأمة تشكو من سوء التغذية فتقبل على الخمور وتتبع

الطريق العوجاء فى الشهوات والنزوات ، وتشيع فيها فلسفة القعود والخمول ، ويصدف فيها الناس عن عظائم الهمم ومغامرات المجد والطموح .

* * *

ومن المشابهات بين أزمات الفرد والجماعة أن نتائجها لا تناسب أسبابها فى جميع الحالات .

فهذا الإنسان الفرد تصيبه إهانة فتدفعه إلى الإجرام ، وقد تصيب هذه الإهانة إنسانا غيره ، فتدفع به إلى صومعة العبادة .

وهذه الأمة تنهزم فى الحرب فتقبل على التجنيد وتضاعف عدتها من السلاح ، وقد تنهزم أمة أخرى فتكثر فيها الطرق الدينية والدعوات الروحية ، أو تروج فيها الآداب المنكوسة والفنون المريضة وما يقترن بهذه وتلك من مساوئ الأخلاق .

وقد تنهزم أمة فتثور على حكومتها طلبًا للإصلاح ، وتنهزم أمة أخرى فتنكسر نفوسها وتخلد إلى السكينة وتقبل الظلم الذى كانت تثور عليه .

* * *

ويتشابه الفرد والجماعة فى علاج الأزمات بالطب الصحيح أو علاجها بالسحر والشعوذة والرقى والتعاويذ .

فهذا الرجل تضيق نفسه فيوقد شمعة على ضريح ، ويعترى رجلا آخر مثل هذا الضيق فيذهب إلى معمل الكيمياء لتحليل

ما يحتاج إلى التحليل من إفرازات جسمه ، ويهتدى بذلك إلى ذوى الاختصاص من الأطباء .

وكذلك الأمم فى شعورها بالضيق وفى طلبها للعلاج : هذه أمة تلوذ بالدجالين الذين يضللونها باسم الدين أو باسم السياسة أو باسم البر والإحسان ، وهذه أمة تلوذ بالمختصين فى تحليل الأدواء الاجتماعية ، ومنها ما يرجع إلى المرض أو يرجع إلى الجهل أو يرجع إلى اختلال الوسائل المعيشية وتنظيم الأعمال والثروات ، وكان من شئون الأطباء الاجتماعيين الذين يعرفون ما يجهله المشعوذون والدجالون .

* * *

هذه مشابهات متعددة بين الفرد والجماعة فى الأزمات النفسية ، وأهمها فيما رأينا أننا نضع أيدينا على علة الأزمات فى الإنسان الواحد وفى الجماعات البشرية ، وهى الحيرة وصعوبة الاتجاه فى طريق دون طريق .

هذا هو أهم شبه بين الأزمة النفسية فى الفرد والأزمة النفسية فى الجماعة . وإنما كان المهم فيه أنه يهدينا إلى التماس العلاج من طريقه القويم .

فإذا كانت الحيرة هى علة الأزمة النفسية ، فاليقين هو علاجها الوحيد ، وما هو اليقين ؟ .. هو الإيمان كيفما كان .

من كان فى أزمة نفسية فقد شفى منها حين يخرج من الحيرة

إلى العمل المطلوب ، عن اعتقاد فيه ورجاء فيما ينتهى إليه .

وقد يكون هذا الرجاء صادقًا معقولاً وقد يكون كاذبًا غير معقول . ولكن الأزمة النفسية لا تشفى بغيره كائنا ما كان نصيبه من الحق أو الباطل .

من أين تأتى الأزمة ؟

تأتى من الحيرة .

وما علاج الحيرة ؟

علاجها الذى لا شك فيه هو العلاج الذى يزيل حيرة النفوس : وهو اليقين ، أو الإيمان .

لكن المسألة ليست من السهولة ، بحيث تغنى فيها معرفة هذه الحقيقة كل الغناء . لأن معرفة الدواء لا تغنى عن تحضير عناصر الدواء .

وعناصر الإيمان هى تأثير نفسانى بليغ ، وعقيدة مقبولة لا تناقض المحسوسات .

فلا تقوم عقيدة بغير شخصية إنسانية قادرة على إيحائها ، وعاطفة حية تستجيب لدعائها ، ومبادئ روحية أو فكرية لا تناقض الجيل فيما يعلمه ، وفيما يحسه ويراه .

ولا تقوم عقيدة على بضاعة الإيهام وحده دون العمل النافع السريع .

وإن قامت هنيهة من الوقت فمصيرها إلى الزوال .

* * *

كل أزمة نفسية تعترى الشعوب تأتى من حيرة وتشفى بإيمان ، وكل إيمان يقوم على الوهم وحده مخفق فيما يدعو إليه . فلابد من التوفيق بين الإيمان ومطالب الأوان ، ولو كان الإيمان مما استقر به اليقين فى زمن قديم .

حديث العيد

كل عام وأنتم بخير

بهذه العبارة الجميلة نتبادل التهانئ بالأعياد فى بلادنا العربية . أو فى البلاد التى يجمعها اسم « الشرق الأدنى » .

ويسرنى أن ألقاكم من هذه المحطة التى تسمى باسمه . لأنها من جهة تهنئة بلادنا التى اصطلحنا عليها . ولأنها من جهة أخرى أجمل تهنئة عرفناها بين تهانئ الأمم بالأعياد .

فأكثر الأمم تتبادل التهنئة فى أعيادها بتمنى السعاده للمهنئين ... ويوم سعيد أو عام سعيد أو عيد سعيد – هو الاصطلاح الذى يتبادله معظم الغربيين فى أمثال هذه المناسبات ، وهى أمنية جميلة محبوبة .

لكن أمنيتنا نحن الشرقيين أجمل منها وأحب إلينا .

لأن الخير أعظم من السعادة ، وهو يشملها ويحتويها . ولكنها لا تشمله ولا تحتويه .

قد يكون الإنسان سعيدًا وهو مخدوع فى سعادته . كأولئك الناس الذين يحيط بهم الشقاء وهم يجهلونه ويجهلون أنفسهم ويحسبون أنهم سعداء .

وقد يكون الإنسان سعيدًا بما لا يشرفه ولا يجلب السعادة إلى غيره ، كأولئك الأشرار الذين يسعدون بما يشقى الآخرين ، ويرتفعون فى أعين الدهماء وهم حقيقون بالضعة والإسفاف .

وقد يكون الإنسان سعيدًا لأنه فارغ من المتاعب لا يشغل نفسه بواجب ولا مروءة ، ولا يتطلع إلى مجد ولا فضيلة .

فالسعادة جميلة محبوبة ، ولكنها معدن قابل للتزييف والخداع .

أما الخير فهو المعدن الذى لا يقبل تزييفا ولا خداعًا ، ولا يكون خيرًا إلا وهو شىء يختاره الإنسان الفاضل على كل حال .

فمن كان فى خير فهو فى صحة ورضا وراحة ضمير ، وهو سعيد والناس به سعداء .. وهو بعيد من الشر أو الشر منه بعيد ، وهذه هى الأمنية المثلى التى نبحث عن أمنية نتمناها لأحبائنا حين نتبادل التمنيات الحسان فى الأعياد ، فلا نهتدى إلى أمنية أكرم منها ولا أعز وأغلى ، وكل عام إذن وأنتم بخير .

وإن شئتم مرادفًا لها ، تجرى به الألسنة فى بلادنا كذلك .. فكل عام وأنتم طيبون .

* * *

إننى أريد أن أمضى فى الفخر ببلادنا خطوة أخرى . لأننا فى يوم يحسن فيه الفخار .

وأعاهدكم على الفخر الصادق فى كل ما نسوقه من دواعى

الفخار ، لأننا لهذه المناسبة نملك على الأقل بعض دواعيه .

فليست تهنئتنا أجمل التهنئات وكفى ، بل تسميتنا للعيد هى كذلك أجمل التسميات أو أصدق التسميات .

فالأعياد - أو الأيام المحتفل بها - تسمى فى لغات الأمم بما يقابل معنى الطعام أو معنى الاجتماع على الطعام .

وقد أطلق على بعضها اسم (اليوم المقدس) بعد أن عرف الناس معنى التقديس وعبادة الله .

وهى تسمية ناقصة فى دلالتها من بعض الوجوه ...

لأن الناس قد يجتمعون على الطعام ولا يكررون الاحتفال بيوم الاجتماع أو لأن تناول الطعام ضرورة جسدية مطلوبة - ولكنه ليس بأشرف ما تذكره الأمم ويحتفل به بنو الإنسان ، ومن الجائز أن يعرض اليوم المقدس للمؤمنين بقداسته ثم لا يجددون الاحتفال به فى كل موسم من مواسم العام .

أما العيد فهو اليوم الذى يعود أبدًا أو هو يوم السرور المعاد كما فسره بعض المفسرين ، وهذه هى التسمية التى تطابق معناه الصحيح كما يراد فى كل أمة من الأمم ، وإن كانت اللغة العربية هى التى انفردت بأصدق أسمائه بين سائر اللغات .

خطوة أخرى فى طريق المفاخر التى يتاح لنا فى هذه المناسبة أن نعددها ، وقد يساغ الفخر مع التهنئة والتمنى . لأن الفخر سبيل من سبل الهناءة والطموح إلى الآمال .

أريد أن أخطو فى طريق المفاخر هذه الخطوة الأخرى .

بل لابد لى من التقدم بها لأنها تفضى بنا إلى لباب الموضوع حين يكون الموضوع هو التهنئة بالعيد والكلام على الأعياد .

تهنئتنا أجمل التهنئات ، وتسميتنا أصدق التسميات ، وحكمة العيد عندنا أكرم الحكم . إذا ذهبنا نبحث عن حكم الأعياد الدينية عند جميع الأمم من قديم العصور .

فالأيام الممتازة عند الأمم قديمة إلى أقصى مدى القدم المعروف فى التاريخ .

قد ورد ذكرها فى الآثار المصرية العريقة ، وورد ذكرها فى الياذة هوميروس اليونانية ، وذكرت أيام منها فى تاريخ الفرس الأقدمين ، ولم تعرف أمة واحدة خلا تاريخها من يوم ممتاز تحتفل به وترتقب عودته حيناً بعد حين .

وتدور هذه الأيام الممتازة حول أسباب كثيرة ، متعددة الغرض والدلالة ، ولكنها قد تجتمع آخر الأمر فى ثلاثة أغراض شاملة . وهى الاحتفال بمواسم الزرع والحصد ، أو الاحتفال بذكرى الأسلاف المعبودين ، أو الاحتفال بملاهى البطالة وأوقات الفراغ .

وقد تتكرر هذه الأعياد فى كل عام أو فى كل شهر ، ولكنها تقترن جميعا بمناسبات الطعام والشراب وما يجمعه الزارع من الثمرات والأعناب التى تصلح للطعام والشراب .

من تلك الأيام يوم وفاء النيل عند قدماء المصريين ، وقد زعم بعض المؤرخين أنهم كانوا يختمون حفلات اليوم بحفلة يقذفون فيها بعروس إلى النيل ، وهى فتاة عذراء يختارها الكهنة بما ينتحلونه لها من الأوصاف .. والقول الراجح أنها كانت عروسًا من الطين يرمزون بها إلى زواج الأرض بالماء وما ينجبه هذا الزواج من الثمرات والبركات .

ومن تلك الأيام يوم المهرجان عند الفرس الأقدمين وهو اليوم الذى اقتبس العرب عادة الاحتفال به وقيل إن المأمون قال فيه ...

صل الندمان يوم المهرجان بصاف من معتقة الدنان
بكأس خسرواني عتيق فإن العيد عيد خسرواني

ومنها يوم (رام) الذى قال فيه أبو نواس :

اسقنا إن يومنا يوم رام ولرام فضل على الأيام
من شراب ألذ من نظر المعشو ق فى وجه عاشق بابتسام

وكان الفرس يحتفلون بيوم رام هذا فى اليوم الحادى والعشرين من كل شهر ويتخذونه مناسبة للمتعة بالراحة والفراغ .

وقد تقدم أن معنى كلمة العيد فى اللغات الأوربية يرجع إلى المائدة أو الاجتماع على الطعام . ولكن اعتبار العيد بهذا المعنى كان عادة الأمم قديمًا من غربيين وشرقيين . وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة التاريخية فى سورة المائدة حيث جاء فيها :

(وقال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

فالأعياد على هذا قد نشأت جسدية فى خدمة الأجساد ، وقد اشتقت أسماءها أو مسمياتها من الولائم والأطعمة ، ولم تكن لها حكمة ترتفع بالإنسان إلى ما فوق الطمع فى الرخاء ووفرة الطعام والشراب . ويسرى ذلك حتى على الأعياد التى كانت تقام لإحياء ذكرى الأسلاف ، فإنهم كانوا يتوسلون بها إلى أمثال هذه الأغراض .

أما العيد فى الإسلام فهو على نقيض ذلك يوم يتصل بخلائق النفس ولا ينحصر فى مطالب الجسد . وكلا العيدين - عيد الصيام وعيد الضحية والفداء - هو يوم الاحتفال بانتصار الإنسان على مطالبه الدنيا أو يوم الإيمان بالتضحية والصبر على المجهود .

ومن عجائب الاتفاق أن هذه الأعياد تناسبها الشهور القمرية التى تقترن بمواعيدها .. لأنها شىء يمتزج بأطوار النفس ولا يتوقف على أدوار الفصول ومواقيت الأنهار . فتعود إلينا فى الصيف كما تعود فى الشتاء ، وتقبل والأرض خالية من الزرع كما تقبل والأرض مزهرة خضراء .

فإذا انقضى شهر رمضان فالمسلم يحتفل فى عيده بصفتين من

صفات النفس الإنسانية التى تقوم عليها قواعد الأخلاق ، وهما الإرادة والتغلب على العادات . فهو يحتفل به لأنه استطاع أن يحد من شهوة المأكل والمشرب لا لأنه متربص لفرصة الامتلاء والارتواء ، وهو يحتفل به لأنه اقتدر على تغيير عاداته فى ألزم ضروراته ... والمرء فى قبضة العادات آلة من الآلات .

وإذا كان أناس من المسلمين - كثيرون أو قليلون - يخرجون بالصيام عن هذه الحكمة - فمعناه الأصيل هو معناه الذى لا يضيره انحراف الناس عن سوائه ... لأن الطب لا يضيره إهمال المريض أن يتعاطى الدواء .

أما العيد الكبير فهو عيد الفداء أو هو موسم فى كل سنة يعلم الناس أن يبذلوا بعض ما لهم بالتضحية ، ويبذلوا بعض راحتهم بالسفر والاغتراب ، ليتعلموا أن الفداء أدب من آداب الروح ، وأن خسارة الضحية رجحان فى ميزان الحساب .

ويحق للمسلم أن يفخر بحكمة هذين العيدين كلما ذكرت كلمة الأعياد ، وأنه لأحق بالفخر كلما وفق بين عمله وبين هذه الحكمة ، وجعل العيدين درسين خالدين يستفيد من أحدهما فضيلة الإرادة ، ويستفيد من الآخر فضيلة الفداء .

إننا افتخرنا بأعيادنا وافتخرنا بتهنئتنا وافتخرنا بأسمائها ، ومن حقنا - بل من واجبنا - أن نفخر بأعمالنا فيها أو بأعمالنا فى سائر أيامنا كما تهدينا إليها حكمة هذه الأعياد .

وإن الأعياد بحمد الله لغنية عن الإسهاب فى العظات لأنها تهدينا إلى عظاتها بأقرب ظواهرها : وهى الاشتراك فى فرح واحد وفكرة واحدة .

وهل يشترك الناس فى فرح واحد وهم متقاطعون ؟ وهل يشتركون فى فرح واحد ومنهم الغنى الذى يجمع أمة أمة والبائس الذى يعز عليه قوت يوم ؟

إن الحزن المشارك كما قيل نصف حزن ، وإن السرور المشارك ولا ريب سروران ضعفان أو أضعاف مضاعفة ، وأن هذا العيد عيد أمم لا عيد فرد ولا عيد أسرة . فمن استطاع أن يسعد فيه الناس معه فهو الرابح بهذه المشاركة ، ومن تفرد فيه بنعمته فهو الخاسر بهذه الأثرة . وأمنيتى لكم فى الختام كتهنئتى لكم فى الابتداء .. الخير والطيبة لكم أجمعين .. فكل عام وأنتم بخير وكل عام وأنتم طيبون ..

التفاؤل والتشاؤم

اتفق فى أسبوع واحد أننى سئلت بعض الأسئلة فى موضوعات مختلفة :

سئلت عن مستقبل العروبة ، وسئلت عن مستقبل الإنسانية بعد القنبلة الذرية ، وسئلت عن مستقبل الهيئات العالمية ، أو مستقبل الهيئات التى تتكفل بتقرير السلام ، وتنظيم المعاملات الدولية .

فكان جوابى على هذه الأسئلة مما يبعث الطمأنينة والرجاء ، أو كنت فى هذه الأجوبة من المتفائلين ، ولم أكن من المتشائمين .

قال لى أكثر من سائل واحد : عجبًا ! إن فى شعرك لسخطًا وشكاية ، وإن فى طبعك لتبرمًا وثورة .. فكيف توفق بين هذا ، وبين نغمة التفاؤل التى نسمعها منك فى تلك المسائل الكبرى ؟

وأحب أن أنصف السائل فأقول : إن سؤاله غير عجيب ، وإنه سؤال يخطر على البال ، بل يخطر على بال الكثير .

ولكنى أحب أن أنصف الحقيقة فأبادر قائلًا ؛ ولكنه سؤال يقوم على خطأ ، ويتوقف على بيان هذا الخطأ تصحيح الرأى فى كل ما قيل عن المتفائلين والمتشائمين .

خطأ أن يخطر على البال أن الشكوى دليل التشاؤم ، وأن قلة الشكوى دليل التفاؤل .

لأن الإنسان قد يشكو لأنه مفرط فى التفاؤل ، وقد يمسك عن الشكوى لأنه مفرط فى التشاؤم لا يرجو ولا يرى فائدة من الرجاء ، ولا يألم – من أجل هذا – لفقدان الرجاء .

وكل منا يستطيع أن يرى مصداق ذلك ، فيمن يعاشرهم من الأصدقاء والأصحاب . فنحن لا نشكو من الرجل الذى لا يهمنا ولا يستولى منا على موضع الثقة والأمل . وقلما نذكره بالنقد أو الملام ، لأننا لا نحاسبه على نقص ، ولا نعتقد فيه الكمال .

ولكننا نشكو من الصديق الذى نثق به ونعول عليه ، وننتظر منه المودة ، ولا ننتظر منه الجفاء .

فالشكوى إذن قد تكون مقياسًا للثقة والأمل ، أو مقياسًا للتفاؤل والإقبال .

وقلة الشكوى ، قد تكون إذن مقياسًا لليأس والإعراض ، وقلة الاكتراث ، لأن اليأس كما قيل إحدى الراحتين . فتكون الراحة على هذا المنوال من أبرز سمات المتشائمين .

ذلك هو موضع الخطأ فى السؤال .

وتصحيحه أن الإنسان قد يشكو لأنه ينتظر ويرجو فهو على هذا من المتفائلين ، وإن كان من الشاكين .

وأن الإنسان قد يكف عن الشكوى لأنه لا ينتظر شيئًا ولا يثق بشيء ، فهو على هذا من المتشائمين ، وإن خلا كلامه من السخط والامتعاض .

* * *

تصحيح آخر يلحق بهذا التصحيح : إن الرضا عن الحياة ، لا يستلزم الرضا عن كل شيء فى الحياة .

فقد ييئس الإنسان من هذا الأمر ويعلق الرجاء بغيره ، وقد ييئس من هذه الأمة فى حالة من الحالات ويرجوها فى حالة أخرى ، وقد يغضب ويرضى ، ويقدم ويحجم ، ويبالغ فى الريبة ويبالغ فى الاطمئنان وهو لا يحسب من أجل ذلك من المتشائمين . لأنه يجرى على سنة الحياة ، والحياة لا تجرى فى اتجاه واحد .. وحسبنا من التفاؤل أن يجرى الإنسان على سنة الحياة .

* * *

إذا صححنا ذلك الخطأ فلا حاجة بنا إلى بحث طويل لنعلم أن الناس جميعًا متفائلون ، وأن التفاؤل سنة الفطرة التى تجرى عليها بداهة ، وإن قالت الأفكار غير ما تقول البداهة ، فى حين من الأحيان .

لا حاجة إلى البحث الطويل لنعلم أننا جميعا متفائلون فى صميم الصميم .

فإن نظرة واحدة إلى الطريق فى مدينة من المدن العامرة –

ترينا أننا نحسن الظن بالدنيا وبالناس ، وإن كان فى حسن الظن خطر على الحياة ، بل خطر جد قريب .

فانظروا - مثلاً - إلى راكب السيارة فى الطريق المزدحمة بالسيارات : إنه يسلم حياته فى الحقيقة لسلسلة من الظنون التى لا يقوم عليها برهان : ألا يجوز - مثلاً - أن يكون سائق السيارة مجنوناً أو قليل الخبرة بالسواقة ؟ إنه يحمل رخصة من الحكومة . نعم ولكن من الذى يطلب منه هذه الرخصة قبل الركوب ؟ وهبه طلبها واستيقن من صحتها فمن أين له أن الموظف الذى أعطاه إياها لم يخطئ فى التقدير ؟ ومن أين له أن السائق لم يصب بالجنون أو بالخبل فى تلك اللحظة ، ولا نقول فى لحظة قبل ذلك ؟ ولنزعم أن هذا كله مستحيل - ولا استحالة فيه على التحقيق - فمن أين لنا أن السيارة القادمة علينا ، لا تصطدم بنا لسبب مفاجئ يعتريها فى أدواتها ؟ أو لأنها داست على حجر صغير فى الطريق فانحرف بها عن سوائها ؟ أو لأن القراريط القليلة التى تفصل بينها وبيننا ، لم تدخل فى حساب واحد من السائقين ؟ أو دخلت فى حسابه ولكن المطاط قديم ورديء فهو لا ينتظم على سوائه بحساب القراريط ؟

وندع السيارات فى الطرفات العامرة ، ونضرب المثل بقطار لسكة الحديد ، فى الخلاء .. وفى الظلام .

ينبعث القطار كالسهم المارق فى ظلمات الليل ، فيتوسد الراكب ما شاء من وساد ثم يستسلم للرقاد .

يقوم على حراسة الطريق مئات من المفتشين والمهندسين ، وموظفى الحركة وعمال الإشارة والتحويل . وربما كان واحد من هؤلاء سكران أو نائما فى ذلك المساء ،

ربما كان قضيب من القضبان قد رقت من تحته الأرض ، فانخسف أو غاص به حمل القطار .

ربما سها عامل الإشارة ، أو عامل التحويل ، أو ربما نزعت نوازع الشر ببعض المجرمين ، فقطع القضبان أو دمر القناطر ، نكاية بأحد الركاب :

وكل « ربما » من هذه « الربمات » الكثيرة كافية لضياع القطار ومن فيه .

ولكنهم لا يخافون شرها ، ولا يحسبون حسابها ولا يعتقدون فى قرارة أنفسهم ، إلا أن الأمر على ما يرام ، وأن كل شيء فيها على أحسن نظام ، وأن تلك الظنون أوهام فى أوهام .

يعتقدون ذلك دون أن يفطنوا إليه ، ويعتقدونه فى الجد والخطر وليس فى الهزل ولا فى الأقاويل ... ويعتقدونه على الرغم من سهولة الخواطر والاحتمالات التى تشككهم فى تلك العقيدة ، لأن كل احتمال منها جائز كل الجواز فى جميع الأوقات ، وكل

احتمال منها قائم فى العقل لا ينفيه برهان ، ولا يلحق به بطلان .

* * *

بل مالنا وللسيارات والقطارات ؟

وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟

فكل منا مثال للتفاؤل المفرط فى طبيعة الحياة لا يدانيه مثال .

كيف دخلنا إلى هذه الدنيا ؟ وبأى حالة من العجز والحاجة والنقص الشديد هجمنا عليها ؟

كل منا قد هجم على هذه الدنيا أضعف ما يكون المخلوق حولاً وحيلة ، وأوهى ما يكون الحيوان فى العقل و الجثمان .

هجم كل منا على هذه الدنيا عاريًا ساهيًا قليل الأداة ، محتاجًا إلى كل عون فى الطعام واللباس والمأوى والوقاية .

هجمنا عليها أضعف مما يهجم عليها الحيوان المولود ، لأن أكثر الحيوان المولود ، يقوم على أرجله ويسلك سبيله إلى العشب والماء .

وكل علامة من علامات هذا الضعف البالغ – هى فى الوقت نفسه علامة من علامات الثقة بقوانين الوجود ، وعلامة من علامات التفاؤل الأصيل الذى يمتزج بطبائع الأشياء ، وعلامة على أن الإنسان يستقبل الميلاد مغمض العينين ، مفتوح الغريزة ، معمور البديهة ، مهدى الجنان . وكذلك يصنع فى كل

خطوة كخطوة الميلاد .. وكم فى الحياة من خطوات كخطوة الميلاد ؟ .. كم فيها من ميلاد روح وميلاد فكر ؟ وميلاد قريحة ؟ وميلاد ضمير ؟

* * *

وليس الإنسان وحده عنوان التفاؤل فى ميلاده ، وطبائع حياته ودلائل تصرفاته .. فإن عالم الحياة كله يرينا أن التفاؤل هو سنة الحياة ، وأن الحيوان سعيد طروب ما لم يعرض له سبب من أسباب الشكاية ، فتأتيه الشكاية عارضة ، وتكمن فيه عوامل الرضا بغير سبب غير انتظام الفطرة على سوائها . فهو يرقص ويمرح ويغنى ويلعب إلا إذا جاع ، أو مرض ، أو فارق الأليف ، أو حيل بينه وبين الفطرة المستقيمة ، بعارض من عوارض الانحراف .

فالتفاؤل أصل دائم ، والتشاؤم عارض زائل ، وعلى هذه السنة البديهية ينبغى أن تواجه هذه الدنيا .. بل نحن نواجهها كذلك سواء أخذنا بما ينبغى أو أخذنا بنقيضه ، ولا ننحرف عن هذه السنة القويمة مختارين .

* * *

إنما نقرر سنة التفاؤل لأنها سنة العمل ، وسنة التكوين الصحيح ، وسنة الفطرة التى يدين بها الوجدان قبل أن تدين بها الأذهان .

وإذا قال الإنسان : إننى متفائل ، فإنه يقول إن العمل غير باطل ، وإنما يقول إن العمل ميسور مفيد ، وكل عمل مفيد ميسور فهو واجب لا محيد عنه ، لأن القعود عن العمل – مع إمكانه وجدواه – أمر غير معقول ولا مستساغ .

نتفاءل إذن لأننا لا نستطيع أن نتشاءم مختارين .

ونتفاءل لأننا نريد أن نعمل . فترك العمل هو النتيجة المعقولة لتشاؤم المتشائمين . أما النتيجة المعقولة لتفاؤل المتفائلين فهو أن يفعلوا ما يمكن ، وأن يلتمسوا ما يفيد .

إنهم يعملون ولابد أن يعملوا ، لأن العمل إن لم يكن فريضة من فرائض الأخلاق وسمة من سمات المروءة . فهو على الأقل حافز من حوافز الطبيعة ، وهو أمتع للنفس ، وأروح للحس ، وأدنى إلى التسلية فى إنفاق الأوقات وقضاء الأعمار .

عبقرية محمد[1]

عندما اقترح على أن أتحدث إلى حضراتكم فى موضوع من موضوعات الأدب والثقافة . رحبت بالاقتراح وحمدت المقترح لأننى أحببت أن أتحدث إليكم من أم درمان كما تحدثت إليكم قبل الآن من القاهرة وبيت المقدس . وكلها فى مسامع للعربية متقاربة وإن تباعدت الديار .

وتساءلت فيمٍ يكون الحديث ؟

فوجدت اتفاقا يشبه الإجماع على أن يكون فى « عبقرية محمد » .. وكان من المتفقين على ذلك أناس قرءوا الكتاب وأناس لم يقرءوه ، فحمدت هذا الاتفاق كذلك . لأن « عبقرية محمد » موضوع خالد جديد : خالد من ناحية صاحب العبقرية ، وجديد من ناحية الكتاب الذى ألف فيه .. وليس أيسر من الكلام فى موضوع خالد جديد .

سألنى كثيرون : لم اخترت الكتابة فى عبقرية محمد ؟

وجوابى عن هذا السؤال : إننى سئلت قبل ثلاثين سنة : لم لا تكتب كتابًا عن محمد ؟

---

(١) ألقيت من محطة الإداعه بأم درمان سنة ١٩٤٢ .

وعندى أن السؤال الأول قبل ثلاثين سنة كان أحق بالتوجيه من السؤال الأخير فى هذه الأيام .

فمازلت مولعًا بالسير والتراجم أكتبها وأقرؤها وأقرأ عنها . ومازال فى ودى أن أكتب عن النبى العربى كتابة إنسانية على النمط الذى تعرف به العظمة فى كل مكان وفى كل لسان .

وقد وضعت كتابى فى سيرة الشاعر الشرقى ابن الرومى والشاعر الغربى جيتى والزعيم المصرى سعد زغلول . ووضعت فصولاً كثيرة فى سير المعرى والمتنبى ودعبل وبشار وتوماس هاردى ومصطفى كمال وغاندى وغيرهم وغيرهم من كل طراز ومن كل طبقة ومن كل عصر .

فإذا وضعت كتابًا عن النبى العربى فما فى ذلك من عجب . بل العجب ألا أضعه قبل الآن . وهذا عجب حق يجب أن يجيش فى نفس كل قارئ . ولكن العجب كما يقال يبطله عرفان السبب .. والسبب أن محمدًا أعظم من كتبت عنهم من العظماء .. فالتهيب لموضوعه أعظم ، والتردد فيه أولى ، والاستعداد له أحرى أن يطول .. وقد طال ولله الحمد على ذلك .

فى مقدمتى لهذا الكتاب – كتاب عبقرية محمد – رويت قصة جرت فى ضاحية العباسية بالقاهرة قبل ثلاثين سنة فقلت :

« فى يوم من أيام المولد – والرهط يزورنى ليؤم ساحة المولد فى المساء – كان الكاتب الأيقوسى العظم توماس كارليل هو

محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب الأبطال الذى عقد فيه فصلاً عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل » .

« وإنا لنذكر آراءه ومواضع ثنائه على النبى إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية ، وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متحذلقًا يتظاهر بالمعرفة ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة .. فكان مما قاله شىء عن الزواج .. وشىء عن البطولة فحواه أن بطولة محمد إنما هى بطولة سيف ودماء .

« قلت ويحك ! ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية !

« وقال صديقنا المازنى : بل السيف أكرم من هذا . إنما سوغ صاحبنا شيئًا آخر يستحقه ، وأشار إلى قدمه .

« وارتفعت لهجة النقاش هنيهة ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول أو خيل إليه أنه مقبول .

« وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبى وهو كاتب

غربي لا يفهمه كما نفهمه ولا يعرف الإسلام كما نعرفه ، ثم سألني بعض الإخوان : ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابًا عن محمد على النمط الحديث ؟

« قلت : أفعل ، وأرجو أن يتم ذلك في وقت قريب » .

ولكنه لم يتم في قريب .. بل تم بعد ثلاثين سنة ..

والخيرة في الواقع .

والخيرة كذلك في هذا التأخير !

فإنني لو كتبته يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد ، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية إلى محصول ذلك العمر الباكر . إذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلئ فيه إعجابًا بمحمد لأنه عمر الإعجاب والحماسة الروحية ، بيد أنه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره في مثل تجاربه وفي مثل السن التي اضطلع فيها بالرسالة ، وإن تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه .. »

ذلك هو تاريخ الفكرة التي نجمت قبل ثلاثين سنة ولم تزل تتردد في الذهن خلال هذه السنين الثلاثين .

ثم أنشئت مجلة « الرسالة » التي تعرفونها وتقرءونها ودعيت إلى الكتابة فيها .

وكان من سننها الحسنة التي ماتزال تتبعها أن تخرج لقرائها

عددًا خاصًا بالدعوة المحمدية فى كل ذكرى من ذكريات الهجرة أو المولد النبوى . فجعلت أكتب لهذه الأعداد فصولاً متفرقة فيها نواة كتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام . تم عوفيت من بعض الشواغل السياسية والشخصية التى كانت تعوقنى عن المضى فى تأليف كتاب كامل ، فما هو إلا أن فرغت للتأليف حتى تم وضع الكتاب فى شهر أو قرابة ذلك .. لأننى كنت أكتبه وكأننى أنقله من الذاكرة لطول التفكير فيه والتهيؤ له والرجعة فى الفينة بعد الفينة إليه .

على أننى فى الحق لم أستغرب أن يسألنى بعض القراء لم اخترت التأليف فى محمد عليه السلام ؟

لأننى فهمت الباعث الذى دعاهم إلى هذا السؤال . فقد ظهرت فى السنوات الأخيرة كتب متعددة عن النبى العربى لأناس من أعلام الكتابة العربية ، فمن الطبيعى حين يزيد على هذه الكتب كتاب جديد أن يخطر على بال بعض القراء سؤال كالذى سألوه ، وأن يتطلعوا إلى استكناه الدواعى التى ميزت السنوات الأخيرة بهذا النوع من التأليف ، ووكلت أقلام الكتاب بهذا الموضوع .

قلت إنه طبيعى أن يخطر ذلك الخاطر على بال بعض القراء .

ولكنى أعود فأقول إنه طبيعى على اعتبار واحد ، وهو أن أولئك القراء نظروا إلى السنوات الأخيرة ولم ينظروا إلى تاريخ

التأليف فى السيرة النبوية والشئون العربية الإسلامية منذ زمن طويل .

نظروا إلى السنوات الأخيرة فتمثلت لهم كأنها ظاهرة منقطعة قليلة النظائر والسوابق .

وكل شىء منقطع قليل النظائر غريب ، وكل غريب يدعو إلى التساؤل والاستفسار .

إنما يزول العجب من أمر من الأمور فى نظر الإنسان إذا رأى له أشباها كثيرة .

وأشباه هذه الظاهرة كثيرة جدا لمن يرجع إليها ، وعندئذ يقف على السبب الأصيل فلا تعنيه الأسباب العارضة إلا عرضًا من قبيل التشوف والاستقصاء .

فكل حركة من الحركات القومية فى العالم الإسلامى كانت مصحوبة باهتمام جديد بناحية من نواحى الدعوة المحمدية على اختلاف مظاهرها وشعابها .

ففى بعض هذه الحركات طبعت كتب السير القديمة التى كانت مخطوطة وظلت كذلك إلى أيام الطبع والنشر على النحو الحديث .

وفى بعضها كتب عن معانى القرآن وأصول اللغة وتاريخ التمدن الإسلامى ومذاهب الأئمة .

وكان معظم ما ظهر فى هذا وذاك فى إبان الحركة العرابية

والحركات التى صاحبتها فى البلاد الشرقية .
ثم كتب أناس مثل رفيق بك العظم ومصطفى بك نجيب وغيرهما فى أعلام الإسلام .
ثم جاءت الحرب الماضية فنشأ فى الأدب المصرى نمط جديد من الاهتمام بسير الأئمة والعظماء ، فنظم حافظ قصيدته العمرية ، ونظم عبد المطلب قصيدته العلوية ، وألف الأساتذة من أمثال الخضرى والنجار كتبًا فى سيرة النبى وسير الخلفاء الراشدين .
ثم أسفرت الحرب الماضية عن عالم عربى حديث ، وموضوعات شاملة للعالم العربى يطرقها الكتاب المقروءون فى أنحاء البلاد العربية .
وهكذا اتصلت الحلقات التى تختلف بعض الاختلاف بين حركة وحركة ، ولكنها تتلاقى جميعًا فى معنى واحد وهو معنى الاهتمام والشعور بالحياة على نحو جديد .
ويتفق كثيرًا أن تتأثر هذه الحركات بحركات الثقافة الأوربية التى تعاصر هذا الاهتمام وتلفت أنظار المؤلفين إليها .
مثل ذلك أن الاهتمام بالشئون الإسلامية ، فى ظاهرته الأخيرة أقرب إلى التراجم والسير منه إلى كل أسلوب آخر من أساليب التأليف .
لم كان هذا !

أعتقد أن السبب راجع إلى تدفق التراجم والسير فى اللغات الأوربية بعد الحرب الماضية . وأن هذه النزعة شغلت الكتاب المحدثين حتى عادوا بها إلى الأزمنة القديمة وأبطالها ولم يقصروها على أبطال هذه الأيام ولا على أبطال الحروب حاضرها وماضيها .

وربما كان هناك سبب آخر للاستغراب والسؤال يحسن أن نشير إليه وأن نقول كلمة فيه : ذلك أن الكتاب الذين شغلوا بالسيرة النبوية فى العهد الأخير كانوا جميعًا أو كان معظمهم من غير رجال الدين .. !

فهل فى الأمر غرابة !

أما نحن فلا نرى وجهًا للغرابة فيه .

فلو أننا عقدنا المقارنة بين ظاهرة الاهتمام فى عصرنا وظواهر الاهتمام فى العصور القريبة لرأينا الملاحظة التى يلاحظونها متكررة فى جميع العصور .

فقد وجد أناس من غير رجال الدين كتبوا فى تواريخ الإسلام وأصول اللغة . بل وجد أناس مسيحيون أو من أصول غير إسلامية كتبوا وأكثروا الكتابة فى هذه الموضوعات ، ومنهم ولا نحصيهم اليازجى وزيدان والشدياق والمستشرقون بين الغربيين .

أفى هذا غرابة أيضًا ؟

كلا . لا غرابة فيه . لأن الأمر الطبيعى فى موضوعات الكتابة التى تتفتح بين حين وحين أن تلفت إليها المشغولين بالكتابة سواء كانوا من رجال الدين أو من غير رجاله ، وقلما كان رجل من فقهاء الدين كاتبًا فى هذه الشئون إلا وهو قبل ذلك أديب أو مشغول باللغة وما إليها .

عندما يتجدد موضوع للكتابة فإنما يكون البحث عنه بين الكتاب المقروئين فى البلاد العربية والبيئات التى تشابهها وليس من اللازم أبدا أن يكون الكتاب جميعًا فقهاء فى الدين .

* * *

نحن إذن أمام ظاهرة متكررة لها أسبابها الدائمة من وراء الأشخاص والأزمنة .

وقد تمتزج هذه الظاهرة برغبة المجاملة لأسباب سياسية أو أسباب شخصية أو ماشاءت المناسبات العارضة .

إلا أن الظاهرة الباقية المتكررة أعم من كل أولئك وأولى بالبحث والسؤال .

فإذا كثرت المدارس والمستشفيات أو مزارع القطن فى بعض الأعوام مثلاً ، فليس المهم أن نعرف أن هذه المدرسة أنشئت لإرضاء ولاة الأمور أو آباء التلاميذ وليس المهم أن نعرف أن هذا المستشفى مقصود به شفاء المرضى وابتغاء السمعة الحسنة ، وإنما المهم إذا اشتد الاهتمام بالمدارس والمستشفيات أن الحاجة إليها

اشتدت حتى امتزجت بها صنوف من تلك المجاملات ، وهذا هو السبب الأصيل الذى تنطوى فيه جميع الأسباب .

* * *

حضرات السادة والسيدات :

حدثتكم فى حديث الليلة عن تاريخ الفكرة التى دعتنى إلى تأليف كتابى عن « عبقرية محمد » وعن تعليل البواعث التى تصاحب التأليف فى هذا الموضوع وأشباهه وخلاصة الحديث كله أن « عظمة محمد » موضوع خالد يتكرر الاهتمام به كلما عرف الناس كيف يهتمون ، وكيف يعربون عن اهتمامهم على نحو من الأنحاء ، ولكل شىء أوانه الذى لا يختاره الكاتب وحده . بل تختاره معه الحوادث والأقدار .

الصوت والشخصية[1]

بحث أصحاب الموسيقى فى الصوت الإنسانى من نواحيه الفنية،فقالوا فيه كل ما يعنيهم أن يقولوه ، ولكنى لا أظنهم وفوه بحثًا من ناحية فيه جديرة بالدراسة الطويلة ، لأنها تفضى بنا إلى استطلاع أسرار النفس وتركيب الشخصية الإنسانية ، ونعنى بها ناحية العلاقة بين الأصوات والشخصيات .

تلقى إنسانًا فى الطريق فتتوقع أن تسمع له صوتًا معينا يناسب ما رأيته من ملامحه الشخصية ، ثم يتكلم فتسمع منه ذلك الصوت الذى توقعته ، أو تسمع صوتًا لا يلفتك إلى غرابة فى التوفيق بين ما رأيت وما سمعت .

وتلقى إنسانًا آخر فيتكلم ، فإذا أنت قد فوجئت بصوت لا تنتظره ، ولا يبدو لك أنه يناسب تلك الشخصية فى جملة مظاهرها . ولا يرجع الأمر إلى القوة والضعف أو الارتفاع والهبوط ، فقد يكون الصوت قويًا كما توقعته ، ولكنه من معدن غير معدن الشخصية التى وزنتها بالعين والبديهة والخيال .

برزت هذه المسألة عندى بروزًا واضحًا بعد انتشار الصور

---

(١) يناسب هذا البحث موضوع الكتاب ولهذا نشرناه فيه .

المتحركة الناطقة وظهور الساسة والعظماء فيها متحدثين أو خطباء أو منشدين ، ولم يلفتنى الأمر من جانب الممثلين والممثلات ، لأن الذين يختارونهم يتعمدون اختيارهم وفاقًا لوقع الصوت والمنظر فى نفوس المشاهدين ، وإنما لفتنى من جانب الوزراء والقواد والرؤساء ، لأن أصواتهم بعيدة من توفيقات ذلك الاختيار المقصود .

فمن الأصوات التى قرأت عن أصحابها ورأيت صورًا لهم ، وعرفت أخبارًا عنهم ، ثم سمعتهم فلم أشعر بالغرابة فيها ، صوت فرنكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق وهو يخطب فى البرلمان ويتحدث إلى الصحفيين ، فلم يكن فى حديثه ولا فى خطابته يخالف ما توقعت من صفة الصوت ولا من نبرته وإيقاعه ، بل خيل إلى أن صوت روزفلت لا يمكن أن يكون إلا على هذه الصفة وهذا الإيقاع .

أما الأصوات التى استغربت أن تكون لأصحابها ، فمنها صوت شرشل وصوت مصطفى كمال ، وليس ذلك لضعف فيهما أو مناقضة لصفات الرجلين الرفيعة ، ولكن لأنها من معدن لا يطابق ما يرتسم فى نفسك من صورة الشخصية كما تتخيلها وأنت تسمعها . ويزيد دلالة هذه الملاحظة أن الصوت ليس هو الشىء الوحيد الذى تستغربه من شخصية بطل الترك أو بطل الإنجليز ، فإن عزيمة شرشل الحديدية تتراءى لك كأنها فى قناع

وراء ملامحه الممزوجة بملامح الطفولة والوداعة ، وتتراءى لك طبائع مصطفى كمال الغلابة وكأنها تتردد فى اتخاذ تلك المعارف الوجيهة التى تطل منها فى بعض حالاته . فإذا أردنا أن نقول إن العلاقة بين الصوت والشخصية لا تختلف عرضًا واتفاقًا وجدنا الشواهد فى ذلك ماثلة فى أحوال الاتفاق وأحوال الاختلاف ، بين الأصوات والشخصيات .

ومن المحقق أن قوة الصوت أو ضعفه لا ترتبطان بالحنجرة وحدها ، أو بأجهزة الصوت المحلية فى مجارى التنفس بين الحلق والرئتين . فإن هذه الأجهزة المحلية قد تكون على ضعف ظاهر من الوجهة الصحية ، ولكنها تعطيك صوتًا قويًّا يروع السامع وينقل عن « شخصيته » صورة تنم على القوة والتأثير . ولا شك أن مئات بين النساء أصح حنجرة وصدرًا من مئات بين الرجال ، ولكنك تسمع هؤلاء الرجال وأولئك النساء ، فلا تخطئ الفارق بين قوة الأصوات هنا وقوة الأصوات هناك . ولعلك لا تخطئ الاستدلال على القوة من صوت المرأة نفسه إذا كانت على نصيب من قوة الشخصية وصدق العزيمة ، مما يوحى إلينا أن الرخامة لا تحرم الصوت مزية التعبير عن الصفات الشخصية ، حيث تغلب الرخامة على أصوات النساء .

وعندك أناس تنطمس فيهم معالم الشخصية ، فلا تستغرب لهم صوتًا من الأصوات كائنًا ما كان ، ولكنك لا تحس أمامك

شخصية واضحة المعالم إلا قرنتها بصوت تتوقعه واستغربت أن تسمع لها صوتاً آخر غير الصوت الذى يناسبها فيما بدر إليك .

ودع عنك دلالة الصوت على التهذيب والتربية ، فإن هذا قد يرتبط بأداء المعانى وانتقاء الكلمات وصقل المخارج والعبارات ، ولكنك إذا أغضيت النظر عن هذه العوارض التى تكسب بالتعليم بقيت للصوت صفة أصيلة تنم على العقل ولا يسهل أن تختلط فيها أصوات العارفين وأصوات الجلاء ، أو أصوات العقلاء وأصوات المجانين .

والمسألة فيها أراه قابلة للتعميم فى أوسع نطاق ، فإن ارتباط الصوت بالخصائص البدنية والخلقية يعم سائر الأحياء ولا ينحصر فى الإنسان وحده ، بل ربما تجاوزنا الأحياء إلى كل كائن من الكائنات له صوت معروف ومعهود .

ما قولك مثلاً إذا سمعت زئير الأسد من الحصان ؟ أو سمعت مواء الهرة من الخروف ؟ أو سمعت عواء الذئب من الثعبان ؟

ليس من اللازم أن يكون صوت الأسد مطابقاً للزئير الذى عرفناه وعهدناه ، غير أننا إذا سمعنا الزئير من الحصان وسمعنا الصهيل من الأسد شعرنا بالغرابة ولا مراء ، وشعرنا بين الصوتين والحيوانين باختلاف يحتاج إلى تصحيح ، ويبدو لنا أننا نشعر بهذا الاستغراب وإن سمعنا الصوتين لأول مرة بمعزل عن

أثر العادة وطول التمييز بين مصدر الزئير ومصدر الصهيل

ولماذا مثلًا لم توهب ملكة التغريد إلا للمخلوقات التى تطير ز الهواء ؟ ولماذا كانت هذه الملكة فى تلك المخلوقات وقفًا على الطيور الصغيرة الوديعة دون الطيور الكبيرة الكاسرة ؟ ولماذ هذا الاختلاف بين النسور والبلابل ، أو بين الصقور والقمارى أو بين العقبان والعصافير ؟

إن الخلائق التى تمشى على الأرض تعبر عن خوالجها ببعض الأصوات المعهودة ، ولكنها لا تحسب من قبيل التغريد والغناء وكذلك النسور والصقور والعقبان تدلك بأصواتها على رضاه وغضبها وعلى مناجاتها وندائها . وتقصر عن تمثيل تلك الأصوات فى أنغام كأنغام الطيور التى تحسن الصفير والهديل . فهنال ارتباط وثيق إذن بين تكوين الجسم كله أو تكوين الخلق ف صميمه ، وبين طبيعة الصوت وقدرته على ترجمة « الشخصية لمن يصغى إليه . وليس اتفاقا ولا خلوًا من المعنى أن يغنى البلبل والعصفور ، ولا يغنى الأسد والثعلب ، وأن يكون التغريد على العموم مرتبطًا بالقدرة على الطيران ، فإن الصوت هنا ترجمان صادق ويلخص لنا كثيرًا من الخصائص المتفرقة التى تتغلغل ف طبيعة البيئة وطبيعة البنية وطبيعة الشخصية فى أوسع حدودها وتلهمنا المعانى التى يمكن أن نستخرجها من تحقيق العلاقة بي أصوات الناس ومعالم الشخصيات فتفتح لنا فتحًا موفقًا فى عا

النفس وأسرار الأخلاق ، وتنشئ لنا فراسة جديدة تنم على السريرة بالسماع .

ومن الأصول التي يعتمد عليها البحث فى هذا الموضوع أننا كما قدمنا نربط بين الصوت والشخصية ونتوقع من كل شخصية معروفة صوتاً يناسبها ويعبر عنها ، وإن اتفاق الصوتين بين الآدميين أندر من اتفاق الوجهين ، وهو خلاف المشاهد بين الأحياء الدنيا التي تكاد تتشابه فى أصواتها ولا يشذ منها واحد فى العشرات أو المئات ، ومعنى ذلك أن المسألة أقرب إلى العلاقة النفسية أو العلاقة المعنوية منها إلى العلاقة الجسدية ، لأن الاختلاف الجسدى قوة وضعفا وصحة ومرضا ، موجود بين الأحياء الأخرى ، فلو كان هو المرجع فى اختلاف الصوت لكان التفاوت فى الصهيل بين مئات الخيل كالتفاوت فى نغمة الصوت وإيقاعه بين مئات الآدميين ، وإنما يقع هذا التفاوت البعيد بين الشخصيات الآدمية من جانب الفوارق العقلية والنفسية وفوارق الملكات والأخلاق ، فإذا استطاع باحث من علماء الصوت وعلماء النفس معًا أن يعقد الصلة بين مقومات الشخصية ومقومات الصوت الإنسانى ، فقد ترجم الإنسان للآذان ، فضلاً عن ترجمته أو تفسيره للبدائة والأذهان .

وهذه دائرة من دوائر البحث الفنى أو العلمى تتسع لمن يشاء من المعنيين بالأصوات أو بالحقائق النفسية ، فليس منا إلا من

يقابل أناسًا يسمع أصواتهم ويستغرب بعضها أو يمر به بعضها الآخر مرور المألوفات التي لا غرابة فيها ، فإذا شغل نفسه قليلاً بتفسير أسباب الموافقة والمخالفة بين الشخصيات وأصواتها ، فلا شك أنه مهتد إلى شيء يفيده في هذا الباب ، وإذا تجمعت هذه الملاحظات وحسن التعقيب عليها والاستخلاص منها ، فقد نقرر بها بعض القواعد التي تقيم لنا علمًا صحيحًا عن العلاقة بين الصوت الإنساني والشخصية الإنسانية ، وييسر لنا البحث في هذا الصدد أننا نعيش في عصر المذياع والصور المتحركة ، ونستطيع أن نمتحن الفراسة بسماع الصوت دون رؤية الشخصية أو بتغيير الأصوات والشخصيات بالحيل الفنية المعروفة ، وليس في المباحث النفسية أو الموسيقية ما هو أحق بالعناية من هذا المبحث الطريف .

الصحافة فى البلاد العربية

من الأحاديث التى رويت عن النبى عليه السلام – حديث يلخص دستور السياسة والاجتماع فى كلمات معدودة . وهو قوله عليه السلام : « كما تكونوا يولَّ عليكم » .

ومن آيات الصدق فى هذا الحديث الحكيم ، أنه يصدق على كل حالة اجتماعية تتمثل فيها صفات الأمم ، ولا يقف عند مشابهة الحكام للمحكومين أو مشابهة نظام الحكومة لأطوار الأمة وأخلاقها .

ففى وسعنا على هذا القياس أن نقول « كما تكونوا تكن صحافتكم » ونحن صادقون فى القول ، لا نعدو به حدود الواقع الملموس .

لأن الصحافة تابعة للأمة التى تعيش فيها ، وليست بسابقة لها ولا مترُقية عليها .

وإذا اتفق فى موقف من المواقف النادرة أن تقدمت الصحافة على أمتها فتلك ولا ريب عارضة لا تدوم . لأن الصحافة إذا تقدمت أمتها على الدوام انقطعت عنها ، وليس فى وسع صحيفة من الصحف أن تنقطع عن قارئيها وعن البيئة التى تكتب لها ،

وهى مضطرة إلى الرجوع إليها يومًا بعد يوم ، أو أسبوعًا بعد أسبوع ، أو شهرًا بعد شهر ، كما تضطر جميع الصحف اليومية والمجلات الدورية .

قد يستطيع الكاتب أن يسبق الأمة بكتاب لأنه يصدر مرة واحدة أو بضع مرات ، وقد ينتشر بين أفراد الأمة لأنه يغضبها ويخالف أهواءها ، كما ينتشر بينهم لأنه يرضيها ويوافق مزاجها .

أما أن يسبق الكاتب أمته بصحيفة دائمة فذلك أمل عسير ، يستبعده العقل ، كما تدلنا التجربة الواقعة على أنه بعيد – جد بعيد .

فإذا سألنى سائل – كيف تريد الصحافة فى البلاد العربية ؟ قلت – كما أريد البلاد العربية واختصرت بذلك مراحل الطريق .

إن الصحافة المثلى هى صحافة مستقلة فى آرائها ، مخلصة فى نصائحها أمينة فى أداء رسالتها ، خادمة للثقافة والأخلاق فيما تنشره من موضوعاتها وأخبارها .

وفى مقدورك أن تؤدى هذه الشروط بعبارة أخرى مرادفة لها كل المرادفة وهى أن الصحافة المثلى هى صحافة الأمة المميزة الرشيدة .. والتمييز فى الأمم ثمرة من ثمرات التعليم والفطرة المستقيمة . فإذا كانت الأمة متعلمة قوية الفطرة فلا تشترط فيها شروطًا للصحافة لأنها لن تروج فيها إذا هى خالفت شروط

الاستقلال والأمانة ، والخدمة القومية التى تقدم مصلحة الوطن على مصالح الأحزاب والأفراد .

فى الأمم التى يعوزها العلم والدراية السياسية يصدقون الرأى الأعوج ويكذبون الرأى المستقيم ويقبلون الباطل السخيف ويعرضون عن الحق المبين . لأن تمييز الحق يحتاج إلى كفاءة ذهنية وفضيلة خلقية ولا يصل إليه المرء إلا بعد الموازنة بين الأسباب والمقابلة بين الأسانيد والبراهين والرجوع إلى المعلومات والسوابق المأثورة . أما قبول الباطل فلا يحتاج إلى شىء من ذلك .. كل ما يحتاج إليه جهل وكفى .. والجهل لا يتعلمه الجهلاء بعناء .

وفى الأمم التى يعوزها العلم والدراية الفطرية تستعر الخصومات الحزبية وتتجاوز الحدود ، لأن الرأى العام لا يحسن الحكم الفاصل بين الخصوم ولا يدرك حقيقة الدعاوى والأقاويل ، فلا تزال الخصومات قائمة ، ولا تزال الأباطيل شائعة والحقائق مجهولة ولو عرضت هذه الخصومات على جمهور يفطن إلى صوابها وخطئها لقضى على الخطأ وأخذ بناصر الصواب فى ساعة ظهوره . فأراح نفسه وأراح المختلفين من لجاجة الخلاف .

ونحن نلمح أثر التقدم فى صحافتنا كلما لمحنا أثر التقدم فى أقوامنا وجماهيرنا فنحن اليوم خير مما كنا بالأمس ، ونحن

غدًا – فيا نرجوه – خير مما نرانا اليوم .

ولا يخطىء المتعجلون فيقولون – إن صحافة الأمس لم تكن تعرف كل هذا التنابذ بالتهم والأكاذيب بين الأحزاب ، إذ الواقع أنها كانت خلوًا من ذلك لأن البلاد كانت خلوًا من الأحزاب وكانت سياستها فى أيد غير أيدى أبنائها ، فلما أخذت فى الاستقلال بشئونها والتنافس على زعامتها كانت العوارض الحزبية فيها علامة من علامات التقدم واليقظة ، ولم تكن علامة من علامات النقص والرجوع إلى الوراء .

* * *

إننى صحفى ، ولكننى لا أبالغ فى رسالة الصحافة ولا أؤمن بأن الصحافة وحدها كافية للقيام بأمانة التثقيف والهداية ، ولو ارتفعت الأمة إلى أرفع مراتب الأدب والتعليم .

ففى الأمم التى بلغت غايتها من العلم والتربية ، تؤتى الصحافة من آفة التقدم لا من آفة الجمود ، وتصاب من ذيوعها بعد أن كان الخطر كل الخطر أن تصاب من ضيق النطاق .

لأن الصحافة إذا انتشرت تعددت وتفرعت وظهرت لكل حزب صحيفة ولكل جماعة من الأمة لسان ينطق بما تريد . ويتفق كثيرا فى هذه الحالة أن تقرأ الجماعة صحيفتها ولا يتسع لها الوقت لقراءة الصحف الأخرى ، فيفوتها أن تحيط بوجهات

النظر كلها وتسمع أبدا من جانب واحد ، ولا تسمع من الجانب الذى يعارضه ويصحح أخطاءه .

وهذه آفة الارتقاء والانتشار .

وإلى جانب هذه الآفة آفة أخرى تظهر لنا قصور الصحافة عن الاستقلال بأمانة التثقيف والهداية ، فهى على أحسنها وأفضلها لا تغنى عن ثقافة الكتاب لأن الطبيب مثلا يقرأ كتابًا ليستوفى البحث فى مسألة من مسائل علمه ، ولكنه لا يعتمد على الصحيفة لأنها تنشر من حين إلى آخر فصلا فى الطب من هنا وفصلا فى الطب من هناك .. ويقال فى الأديب والفنان والمهندس والفقيه ما يقال فى الطبيب .

فمهما يبلغ من ارتقاء الصحافة غدًا فى بلادنا العربية ، فلنحسب حسابًا لهذا القصور الذى يلازم الصحافة فى أرقى البلاد ، ولنعلم أنها لن تنفرد وحدها بتكوين الآراء الصحيحة . ولابد لنا من وسيلة غير الصحافة لدراسة المسائل العامة من جوانبها المتعددة أو لاستيفاء البحث فى شئون الثقافة وقضايا الاجتماع . وقد تتيسر لنا هذه الوسيلة من طريق الكتاب ، وطريق المذياع ، وطريق الصور المتحركة فى بعض المناظر والروايات .

* * *

إذا كانت الصحافة لا تسبق الأمة دائمًا فهى قادرة على أن

تسبقها فى بعض الأوقات .

وإذا كانت لا تعدو أمامها بخطوات فساح ، فعليها أن تمشى معها وفى مقدمة صفوفها ، ولا تمشى وراءها أو تقعد مع الخوالف فى آخر الصفوف .

وإذا كانت الصحافة تروج بمخاطبة العدد الأكبر من الغوغاء - فهى لا تخسر إذا خاطبت النخبة القليلة من الممتازين . بل تجمع بذلك زينة الاحترام إلى منفعة الرواج .

ولهذا يقع اللوم كثيرًا على الصحفى العربى الذى يتوانى عما يستطيعه وهو غير عسير .

إنه لا يستطيع أن يسبق أمته فى كل نسخة من الصحيفة ولكنه يستطيع أن يسبقها فى بعض الأيام .

وهو لا يستطيع أن يهمل حساب الدهماء ، ولكنه يستطيع أن يحسب حساب النخبة الفضلاء .

وهو لا يستطيع أن يثابر عل المسير أمام الصفوف ولكنه يستطيع أن يتجنب المسير فى الصف الأخير .

والعاملون بالواجب الصحفى فى هذا الصدد ثلاث طبقات : طبقة تحمد وطبقة تعذر وطبقة تلام .

فالطبقة التى تحمد - ويا للأسف قليلة .

والطبقة التى تلام - وياللأسف - كثيرة .

والطبقة التى تعذر وسط فى القلة أو الكثرة بين الطبقتين .

ولا نطيل فى التمثيل والاستشهاد . فيكفى أن نشير إلى معارض الآداب والعلوم والفنون فى الصحافة الغربية ونشير إلى أمثال هذه المعارض فى صحافتنا الكبرى أو الصغرى على السواء . فهنا فى الشرق تحيا الآداب والعلوم حياتها بمعزل عن الصحافة كلها . حتى لو اعتمد المؤرخ على الصحافة وحدها فى تسجيل حركتنا الثقافية لخرج من صفحاتها جميعًا صفر الوطاب ، على خلاف صحافة الغرب التى تتابع كل حركة أدبية أو فنية ، وتعنى بتخصيص الملاحق القيمة للنقد والدراسة والتلخيص ، فلا يعيى المؤرخ أن يرجع إليها ويعتمد عليها فى الإلمام بالنهضة الثقافية على أى عهد من العهود .

إن الإصلاح فى الشرق عسير أو لا يزال حتى اليوم أعسر مما ينبغى أن يكون .

وإذا كان بعض الصحف عونًا على الإصلاح فبعضها عقبة فى طريق كل إصلاح ... بل هى نفسها آفة من الآفات التى تحتاج من أجلها إلى جهود المصلحين .

والشرق كما نعلم موطن الأنبياء والهداة ودعاة الإصلاح . ونحن بهذا نفخر ومنه نستمد الثقة والعزاء .. ولكننا كلما فخرنا بأنبياء الشرق وجب أن يكون الجهر بالصدق من مفاخرنا الأولى ، وعظمة لنا ولا ريب أن يكثر بيننا الصالحون للنبوة ، ولكن لولا صعوبة الإصلاح لما كثر الأنبياء ، ولولا المحتاجون

إلى العلاج لما كثر الأطباء ، ولولا سهولة الضلال فى الطريق لما تتابع الإدلاء .

هذا الإصلاح العسير هو الحقيقة التى نذكرها كلما ذكرنا عيوب الصحافة وما وراءها من عيوب الرأى العام . فنحن نطلب من جمهرة الأمة أن تصلح الصحافة ونطلب من الصحافة أن تصلح جمهرة الأمة ، ونبحث عن الذين يصلحون الفريقين معًا فنراهم أقل الدعاة أعوانا فى بلادنا .. لأنهم لا يرتفعون إلى مراتب الأنبياء ولا ينطقون بلسان السماء ومن كذب على السماء بدعواه فهو محتال يبتلينا ببلاء جديد ولا يعصمنا من البلاء المقيم .

على أن الزمن ماض فى طريقه والإصلاح يمضى مع الزمن على هينة ورفق تارة ، وتارة على سرعة وشدة ، وبمشيئتنا فى حين وعلى غير مشيئتنا فى أحيان . وسنبلغ ما نرضاه من العلم والهداية فتبلغ الصحافة ما يرضينا من الأمانة والسداد .

أما اليوم فحسبنا أن نريد منها ما يكون وأن نريد منها ما تستطيعه حيث تشاء ..

فإن عز عليها أن تسبق هوادى الأمة فلا ترجع إلى أذنابها ، ولتتجاوز خطاها كلما تأتى لها أن تتجاوزها ، ولتنظر إلى قلتها كما تنظر إلى سوادها .. وإذا كانت مرآة تعكس ما يقابلها فلا تكن من تلك المرايا التى تطيل القصير وتقصر الطويل أو تسمن

الأعجف وتعجف السمين ، أو تشوه كل ما تراه من جميل ودميم فتلك هى مرايا الملاهى والمهازل التى يتسلى بها الفارغون . أما المرايا التى تلزمنا للجد والزينة ، فهى التى تصف للعين كل ما تراه على سوائه فنهتدى بها إلى العيوب كما نهتدى بها إلى الحسنات .

الحقوق والواجبات

إذا كثرت المطالبة بالحقوق . قل العمل بالواجب .

ولا صعوبة فى تفسير هذه الحقيقة الواضحة ، لأن البلد الذى يعمل فيه كل إنسان واجبه لا يضيع فيه حق من الحقوق ، ولا تدعو فيه الحاجة إلى المطالبة بها أو الشعور بنقصها .

فإذا رأينا بلدًا يكثر فيه المطالبون بحقوقهم فخير ما تنفع به ذلك البلد أن تذكره بواجباته ، وأن تكرر له حكمة واحدة يقرؤها فى كل مكان ويسمعها فى كل مناسبة ، وهى « عليك بالواجب ودع الحقوق تسعى إليك بغير عناء » .

قال لى الزعيم الخالد ، سعد زغلول ، فى بعض أحاديثه – وهو أخبر الناس بالوطن الذى يقوده ، ولهذا استطاع أن يقوده – قال ... : « ...إن آفتنا الكبرى أننا لا نحمل تبعاتنا ، وأننا نحاسب غيرنا على واجباتهم ولا نحاسب أنفسنا على واجباتنا . ثم استطرد قائلاً : منذ نحو ثلاثين سنة دعونا بفراش مشهور طلبنا إليه أن يقيم سرادق عرس وأوصيناه أن يفرغ من إقامته قبل المساء . وفى عصارى اليوم مررنا بالمكان فإذا بالسرادق أكوام من الأخشاب والكراسى والثريات والمصابيح ،

ولا سرادق إلا العمدان مفرقة هنا وهناك لا تؤذن بالانتهاء قبل أيام .. ما الخبر ؟ إن العمال اختلفوا فى التنظيم والتقسيم ، فراح كل عامل منهم يشير على غيره بما يعمل وينتظر هو تنفيذ الإشارة : واضع الكراسى يقول إنه لا يدرى كيف يصفها قبل أن تقام العمدان ، فيأمر من يقيم العمدان أن يقيمها حسبما يأمره ويملى عليه ... ومعلق الثريات فى خلاف مع الاثنين ، يقول إن الكراسى ينبغى أن تصف هنا والعمدان يجب أن تقام هناك ، ولو أقبل كل على عمله لانتهوا جميعًا واستطاعوا أن يفضوا فيما بينهم هذا الخلاف » .

وهذا المثل الصغير يصلح للتعميم فى المجال الواسع الكبير ، وهو مجال الأعمال القومية العظمى التى تتوقف على الأفراد ، ومعنى أنها تتوقف على الأفراد أنها تتوقف على قيام كل فرد بواجب من الواجبات .

فالذى يطالب الناس بحقه ينبغى عليه أن يذكر أن مطالبته بذلك الحق - هى فى الواقع مطالبة للآخرين بعمل الواجب .

ومتى ذكر ذلك فعليه أن يذكر أن مطالبته نفسه بأداء واجبه أيسر من مطالبته الآخرين بأداء واجبهم ، وأن شيوع هذه العقيدة بين جميع الأفراد يغنيه عن المطالبة بالحقوق ، لأن الحقوق لن تضيع فى بلد تؤدى فيه الواجبات .

والمحور الذى يدور عليه الأمر كله أن الإنسان لا يعمل

لنفسه دون غيره ، ولا يعيش بمصلحته دون مصالح أهل وطنه . فإذا كان كذلك فهو إنسان عليه واجبات وله حقوق ، ولن يكون له حق يطالب به ، إذا قصر فى أداء الواجب المفروض عليه ، أما إذا كانت مصلحته وحدها هى التى تعنيه وتستغرق جهوده – فليس له حقوق ، ولا لوم على أحد إذا فاته الحق الذى يدعيه .

نسمع جمهورًا من الناس يطالب الحكومة ببعض الواجبات المفروضة عليها ، ومن المفيد ولا ريب أن تطالب الحكومة بأداء واجباتها ، ولكن لا فائدة على الإطلاق من هذه المطالبة إذا كان الجمهور مقصرًا فى واجباته منصرفًا عن مطالبة نفسه بما تفرضه الوطنية الصحيحة عليه . فإذا كانت المسألة مسألة البر بالفقراء فليس هناك ما يمنع الأغنياء أن ينفقوا المال على بناء المدارس والمستشفيات وتحسين الأجور ، وإذا كانت المسألة مسألة السوق السوداء فليس هناك ما يمنع الشارين أن يتفقوا على تبليغ الحكومة أو على الإحجام عن الشراء والصبر على المقاضاة ومصادرة هذا المورد الخبيث من موارد التجارة ، وإذا كانت المسألة مسألة الأخلاق والرذائل الاجتماعية فاحتقار المسئولين عن الفساد أيسر شىء على الطاقة البشرية ، وهو مع ذلك أصعب عقاب يتقيه الأشرار ، قبل عقاب المحاكم والقوانين .

ونسمع النساء يطالبن بحقوق المرأة على الرجال ، ومما

لا شك فيه أن المرأة لها حقوق يجب الاعتراف بها على حسب اختلاف الأمم والعصور .

ولكن مما لا شك فيه كذلك أن المرأة عليها واجبات ينبغى أن تعرفها ، فإن عرفتها فالعمل بها ألزم لها وأقرب إليها من مطالبة الرجال بواجباتهم ، وإن لم تعرفها فليس لمن يجهل واجباته حقوق يلوم الناس على إهمالها .

ونسمع الرجال ينكرون كثيرا من تصرف النساء فى البيوت أو فى الحياة الاجتماعية . ولكننا على يقين أن هذا التصرف الذى ينكرونه لن تقدر عليه المرأة بغير موافقة الرجال ، سواء كان هؤلاء الرجال من محارمها أو من الغرباء عنها . ولو استطاع الرجال أن يمنعوا أنفسهم عن بعض ما يشتهون لاستغنوا عن منع النساء ، أو لجاء الامتناع عفوا بغير إكراه ولا دعاء .

وفى هذا العصر الذى كثرت فيه المطالبة بالحقوق لا نرى أحدًا إلا وهو صاحب حق مغصوب ، ولا نرى أحدا إلا وهو يتنصل من الواجب ولا يلتفت إليه .

فالجيل الجديد يطالب مثلاً بحقه فى توجيه المجتمع وفى إدارة الحكومة . ومن الحقائق المفروغ منها أن الأمة ينبغى أن تستفيد من كل جيل جديد فى أوانه ، وأن العظمة القومية لا تعتمد فى زمن من الأزمان على كفاءة جيل واحد ، ولو كان أقدر الأجيال . ولكن الحقيقة المفروغ منها قبل كل حقيقة – هى أن

الجيل الجديد ينبغى أن ينظر إلى غده كما ينظر إلى يومه ، وأنه إذا نظر إلى غده علم أن الإنسان لا يعمل لوطنه فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين ثم ينقطع عمله فى الأربعين أو الخمسين أو الستين . ومعنى ذلك أن القيادة الوطنية واجب على جميع الأجيال والأعمار ، وأن الشباب لا يستحقون حق التشجيع إلا بمقدار ما يستوجبون واجب الطاعة والاحترام . وقد تخفى هذه الحقيقة فى كل زمن إلا فى هذا الزمن الذى انهارت فيه النازية والفاشية ... فما انهارت هاتان القوتان العظيمتان إلا لأن المرجع فيهما كان إلى ناحية واحدة من نواحى النشاط والكفاءة القومية ، وهى ناحية الحماسة فى طبائع الشبان أو طبائع الجيل الجديد . فاندفعت ولم تتراجع لأن الشباب لا يعرف المراجعة ، ولم يثبت العصر كما يتخيل بعض المخدوعين أن الجيل الجديد ينفرد بسياسة الأمور . بل أثبت أن الوبال مصير محتوم للأمة التى ينفرد بسياستها جيل من الأجيال ، ولا فرق فى ذلك بين جيل الشباب أو جيل الشيوخ .

وأجهر المطالب صوتاً فى هذا العصر هى مطالب العمال من أصحاب الأموال .

ونحن نعتقد أن الحجر على مطامع أصحاب الأموال فريضة إنسانية ومصلحة وطنية فى وقت واحد ، ونعتقد أن العمال طائفة مهضومة الحقوق جديرة بالإنصاف ... بل نعتقد أن أصحاب

الأموال الذين يفقهون مصالحهم الدائمة ومصالحهم البعيدة والقريبة هم الذين يرحبون بوفرة المال فى أيدى الطبقات على اختلافها ، لأن حركة البيع والشراء تتوقف على تداول الأموال ، ولا تسلم من الركود إذا انحصرت الأموال فى أيدى القليل من الأفراد .

ولكن العمال يظلمون أنفسهم إذا نسوا واجباتهم ولم يذكروا إلا حقوقهم .

فليس فى الأرض قوة تمنع العامل أن يدخر القليل من أجره فى الوقت الذى ترتفع فيه الأجور وتكثر فيه الحاجة إلى الأيدى العاملة .

وليس فى الأرض قوة تكره العامل إكراهًا على إهمال عمله أو تبذير رزقه فيما يضيره ويضير أهله ، ولاسيما ذلك العامل الذى يترك حليلته لأنه وجد المال الذى ينفقه على حليلة أخرى ، أو على خليلة تذهله عن واجباته لبيته وأبنائه ومستقبل أيامه .

* * *

وكذلك تستريح الشعوب المقصرة فى واجباتها إلى من ينفخ لها فى بوق الحقوق ويسكت أمامها عن ذكر الواجبات . ومن هنا يكثر فيها الدجالون الذين يجمعون الثروات بالألوف ويقومون ويقعدون بالرثاء لخصاصة الفقراء ، ويكثر فيها الدجالون الذين ينهون عن الخمر والشهوات وهم غارقون فى الخمر والشهوات ،

ويكثر فيها الدجالون الذين يرفعون الصوت بإنصاف هؤلاء والعطف على هؤلاء وهم لا يخسرون كثيرًا ولا قليلا بذلك العطف ولا بذلك الإنصاف .

فإذا كثر هؤلاء فى أمة من الأمم فتلك علامة على أنها مقصرة فى الواجبات ، وأنها من أجل ذلك لا تستحق الحقوق ولا تعرف الوسيلة إلى بلوغها . إن كان لها نصيب منها .

وإنما تستحق الأمة حقوقها إذا كثر فيها التحدث بواجباتها ، وكثر فيها التنبيه إلى طريق تلك الواجبات .

ولهذا اخترنا أن يكون حديثنا إلى حضرات المستمعين فى هذه الليلة حديثًا عن مقابلة الحقوق بالواجبات ، بل حديثًا عن طريق الوصول إلى الحق وهى القيام بالواجب ... لأن مطالبة نفسى بأداء واجباتى أولى وأسهل إنجازا من مطالبة غيرى بأداء واجباته ، فضلًا عما فى معرفة الواجب من الدلالة على استحقاق الحقوق وعلى قوة الحجة فى المطالبة بها والإصرار عليها .

وقد أصبحنا فى زمن كثرت فيه المطالبة بالحقوق ، فليس أحوج من هذا الزمن إلى التذكير بالواجبات . ولنكن على يقين من أن قيام كل إنسان بواجبه يغنى كل إنسان عن المطالبة بحقوقه ، لأن الحقوق كما قلنا لن تضيع حيث تؤدى الواجبات ولكننا لسنا على يقين ولا على شبه يقين ببلوغ شىء من الأشياء

حين ننطلق فى المطالبة بالحق ونسهو عن القيام بالواجب .

فلنذكر أبدا واجبنا لنبلغ حقنا ، إن لم يكن حرصا منا على الواجب لذاته ... وإن الحرص عليه لذاته لآية صادقة من آيات الطبع الكريم .

الواجب مقامات

تحدثت إلى حضراتكم فى مقال سابق عن الحقوق والواجبات .

وكانت خلاصة الحديث أن الناس فى عصرنا هذا يفكرون فى حقوقهم كثيرًا ، ولا يفكرون فى واجباتهم إلا أقل من القليل . مع أن القيام بالواجبات هو السبيل الوحيد إلى إعطاء الحقوق . لأن حق الإنسان لا يضيع فى أمة يؤدى كل فرد منها واجبه المفروض عليه . فإذا قمنا جميعًا بواجباتنا فلندع الحقوق وشأنها لأنها ستأتى إلينا حيث كنا بغير عناء .

حقيقة لا نظنها تحتمل الخلاف الكثير .

ولكن الأمور فى مسألة الواجب لا تجرى دائمًا على هذا النحو من السهولة والجلاء .

لأن الواجب لا يكون فى جميع الأحوال شيئًا واحدًا مفهومًا متفقًا عليه .

ولو كان كذلك لهان أمره على كل راغب فيه .

ولكن المرء كثيرًا ما يرى نفسه أمام واجبات متعددة متناقضة يجمع بينها بصعوبة شديدة ، أو يفرق بينها بصعوبة شديدة .

وكلها واجبات مفروضة عليه ولابد له من أدائها جميعًا ، أو تركها جميعًا ، أو الاختيار منها بين ما يؤديه وما يتركه ... وكل حالة من هذه الحالات جهد جهيد .

كذلك يرى الإنسان نفسه فى بعض الأحايين أمام واجب مبهم مشكوك فيه ، لا يدرى كيف يؤديه ، ولا يدرى كيف يتركه وهو مستريح الضمير .

أما الواجبات المتعددة فالأمثلة عليها كثيرة ، نكتفى بالإشارة إليها ولا نحصيها .

فهناك الواجبات الكبيرة والواجبات الصغيرة : واجبات تتعلق بها مصلحة الأمة أو العالم ، وواجبات لا تتناول إلا مصلحة فرد أو أفراد .

وهناك الواجب المعجل والواجب المؤجل ، أو الذى يقبل التأجيل . وقد يصطدم هذا بالواجبات الكبرى فى بعض الحالات ، فإن إنقاذ فرد واحد من الموت العاجل عمل ينفع فردًا واحدا أو ينفع ذويه . ولكنه قد يقدم على الواجب الكبير الذى يمكن تأجيله إلى حين ، وإن تعلقت به مصلحة أجيال .

وهناك الواجب الظاهر والواجب الخفى المحجوب عمن لا يعرفونه . وفى القرآن الكريم مثل قوى على هذين الواجبين كما يفهمها نبيان صالحان فضلاً عما يفهمه سواد الناس . وقد سمعتم سورة الكهف مرات وسمعتم أن موسى الكليم عتب على

الخضر عليهما السلام لأنه خرق سفينة وقتل غلامًا وأقام جدارًا لقوم بخلاء لا يستحقون المعونة . فقال له الخضر : « هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا » .

وفى هذه الآيات الكريمة عظة بالغة لمن يريد أن يتعظ بها فى حوادث الدنيا المستغربة من كبيرة وصغيرة . فإن كثيرًا من الناس يلامون وهم معذورون ، بل مستحقون للحمد والإعجاب ، لأنهم يعملون الواجب ويكتمونه . تفضيلاً للسكوت الذى يجلب لهم اللوم على التصريح الذى يجلب لهم الثناء .

وهناك الواجبات الخاصة والواجبات العامة . فليس الواجب الذى ينهض به الأكفاء دون غيرهم كالواجب الذى ينهض به كل فرد من الأفراد أو ينهض به معظم الأفراد ، وليس الواجب الذى ينتظر أهله القادرين عليه ، كالواجب الذى يقدر عليه من شاء حيث شاء .

وهناك الواجب المحمود والواجب المكروه ، فقد يوافق الواجب هوى الناس فيحمدونه ويعرفون فضله ، وقد يناقض هوى الناس فيكرهون صاحبه ويعطلون عمله ، وهو فى الواقع أعظم من صاحب الواجب المحمود وأولى منه بالإعانة والتقدير .

هذه أمثلة نشير إليها ولا نحصيها كما أسلفنا ، ومنها نرى أن الإنسان قد تواجهه فى حياته الخاصة أو العامة واجبات متناقضة لا محيص له من التوفيق بينها . فكيف نطالبه بالواجب إذا كان الواجب نفسه يأمره بما لا يطاع ، لأنه يأمره بما لا يستطاع ؟.

فى الأمر علة لمن يريد التعلل ، وعذر لمن يريد الخلاص من جميع الواجبات .

إلا أنه تعلل معيب مكشوف السريرة ، لأن الإنسان إذا تناقضت منافعه وشهواته لم يتركها جميعًا ولم ينفض يديه منها بأشباه هذه المعاذير . فلماذا يحتمل التناقض فى الشهوات ولا يحتمل التناقض فى الواجبات ؟ ولماذا يريح نفسه من التوفيق هنا ولا يريح نفسه من التوفيق هناك ؟

والواقع أننا نعرف المشكلة لنقول إنها مشكلة يجب ألا تخفى علينا ، وإننا إذا عرفناها عرفنا أنها محلولة بطبيعتها ، لأنها لا تواجه إلا من هو قادر على حلها أو التصرف فيها .

فالواجبات فى الحياة الإنسانية على قدر أصحابها والمسئولين عنها ، ولن يكلف الله نفسًا إلا وسعها .

والواجبات الشائعة لها ملكات شائعة بين الناس تعينهم على أدائها ، وهي في الغالب سلبية تتلخص في الكف عن الأذى والامتناع عن العدوان على الأرواح والأعراض والأموال ، وما كان منها إيجابيًا فهو لا يزيد على أن يحسن الإنسان عمله الذي بين يديه ، ولا خفاء بالوسيلة التي تعين على إحسان الأعمال .

فالواجبات درجات .

والناس كذلك درجات .

والكبير هو الذي يحسن النهوض بالواجب الكبير ، أو يقضي ما يقضي ويترك ما يترك ، وهو مستريح الضمير .

واختلاف الدرجات في العلم ، واختلاف الدرجات في الاجتهاد ، واختلاف الدرجات في الرزق والمعاش من الحقائق الكثيرة التي تكررت في القرآن الكريم .

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم) .

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) .

(نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) .

وهى آيات بينات ، مصداقها ظاهر كل يوم بل كل لحظة ، فى كل فج من فجاج الحياة .

إن حمل الأثقال رياضة الأقوياء بالأجسام .

وكذلك حمل الفروض الجسام رياضة الأقوياء بالنفوس ، ولعلهم يفرحون بالقدرة على مشكلاتها كما يفرح الرياضى الضليع باستخفاف الأعباء الثقال .

يفرح الضعيف بالإعفاء ، ويفرح القوى بمضاعفة الأعباء . فليحمل كل منهما ما يستطيعه ، لا فوق ما يستطيع ولا دون ما يستطيع . ومن أبرأ ذمته فلا جناح عليه .

وتعجبنى أبيات جميلة للشاعرة الأمريكية « الن هوبر » تقول فيها : نمت فحلمت بأن الحياة جمال ، وصحوت فرأيت أن الحياة واجب وجهاد . أكانت رؤياى إذن أكذوبة من أكاذيب الظلال والأطياف ؟ .. كلا . بل جهادًا أيها القلب الحزين وشجاعة فى الجهاد . وإنك لعلى يقين أنك واجد ذلك الحلم حقيقة ماثلة لك فى ضياء النهار .. » .

وشاعرنا الكبير - أبو الطيب - يسبق إلى هذه الحقيقة بأسلوبه الفحل حيث يقول :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

فإذا شكا الأقوياء من الواجب الكبير فعزاؤهم أنهم أقوياء ، وإذا شكا الضعفاء من الضعف فعزاؤهم أنهم قليلو الأعباء .

والواجب مقامات .

والناس كذلك مقامات .

(نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) .

(صدق الكتاب الكريم)

الإصلاح الاجتماعى والقوانين

يكثر الكلام فى الإصلاح الاجتماعى فى الآونة الحاضرة : نقرؤه فى الصحف ، ونسمعه فى الإذاعة ، ونتلقاه من الكتب ، ونشهده فى المحافل العامة ، ونتحدث به فى المجالس الخاصة ، ونغر بأسبابه فى كل حين ، وكل مكان .

كلام ! نعم كلام !

ولكننا لا نستخف بهذا الكلام لأنه مرحلة لازمة من مراحل الإصلاح . ويكفى أن نذكر أن الإصلاح مستحيل بغير كلام يسبقه – لنعلم أن هذا الكلام مرحلة عملية فى حياتنا الاجتماعية ، وأننا نعمل شيئاً حين نقول شيئاً ، ولا نعمل إلا بعد أن نقول .

فلا ضير من الكلام ، بل فيه خير لا شك فيه .

وسنتكلم على هذا الكلام ، لنرى ما يصلح منه وما لا يصلح ، وما ينبغى أن نقصده بكلامنا ، وما ينبغى أن نصرف القصد عنه إلى ما هو أصلح وأجدى .

فأكثر ما يقال عن عيوبنا الاجتماعية يرمى تارة إلى الإصلاح بالقوانين ، وتارة إلى حصر التبعة – أو المسئولية – فى طائفة من

المجتمع المصرى دون طائفة أخرى .

وكلا الغرضين يحتاج إلى كلام فى التعقيب عليه .

فمما لا جدال فيه أن القوانين وسيلة لازمة من وسائل الإصلاح الاجتماعى ، وأنها ظاهرة تلازم هذا الإصلاح فى بعض الأدوار .

ولكننا يجب أن نكتفى بهذا ولا نزيد عليه : القوانين وسيلة لازمة ولكنها ليست بجميع الوسائل اللازمة ولا بأولها فى الترتيب ، ولا بأولها فى وجوب العناية .

لأن الأمة التى لا تعول على شىء غير القوانين فى إصلاح عيوبها الاجتماعية تفسد فيها القوانين قبل أن تصلح الناس ، فتصبح مجالاً للظلم والمحاباة واستغلال السلطة ، والاحتيال على النصوص ، والتهرب من التنفيذ . أو تصبح القوانين نفسها مرضا من أمراض المجتمع محتاجًا إلى العلاج .

فالقوانين وحدها لا تفيد .

بل لابد أن تقترن التربية القومية بالقانون ، ولابد أن يكون القانون مظهرا للرغبة العامة فى تنفيذه ، لا مكرهًا للناس على غير ما يرغبون فيه .

ومن الخطأ البين أن يظن بالقوانين فى الأمم أنها أداة إكراه ، لأنها هى فى الحقيقة أداة رغبة تتفق عليها ، وبغير ذلك هيهات أن

تفيد ، لأن الناس يحتالون على مخالفتها بكل حيلة مستطاعة ، فتبقى الحيلة ويذهب القانون .

ومن أمثلة ذلك قانون الخمر فى الولايات المتحدة .

فلو كان هذا القانون ممثلاً لرغبة الأمريكيين لنجح وأفاد ، ولكنه كان على خلاف رغبهم فكان ضرره أكبر من نفعه ، وانتهى به الأمر إلى الإلغاء .

صدر ذلك القانون على غير رغبة متفق عليها بين الأمريكيين ، فلم يمنع الخمر ولم يقطع دابر السكيرين . بل بقيت الخمر المغشوشة ، وأصبحت تجارة رابحة فى أيدى المهربين الأشرار يجمعون منها الثروات ، لأنهم يبيعونها فى الخفاء بأغلى الأثمان ، ويتهربون من القانون بإحدى طريقتين : إما برشوة الحراس والرقباء ، وإما بإنشاء العصابات المجرمة لمقاومة الحراس والرقباء ، وشاعت بين الناس عادة الخروج على الشريعة وتشجيع الخارجين عليها ، فأصبح فريق من الأمة كأنهم عصابة تعتمد على وسائل الإجرام فى مناضلة الأخلاق المستقيمة والآداب الصريحة . وخسرت الدولة مواردها من الضرائب والمكوس ، وخسرت نفقاتها الكثيرة على الجواسيس ومطاردى العصابات ، وخسر المواطنون آداب الصراحة واحترام القوانين ، وخسر الشاربون الصحة والمال ، ولم يربح بين هؤلاء

الخاسرين جميعًا غير الغشاشين والمهربين والمجرمين وقناصى الربح الحرام من حيث أصابوه .

ذلك كله لأن « الإصلاح الاجتماعى » اعتمد عندهم على نص القانون وحده ولم يعتمد معه على الرغبة القومية والميول الأدبية . فأصبح القانون مرضًا اجتماعيًا كمرض السكر أو يزيد .

* * *

كذلك يضل عن سبيل الإصلاح من يلقون التبعات فى العيوب الاجتماعية على طائفة من الأمة دون طائفة أخرى .

ولنتخذ لذلك مثلًا من أزمة الزواج ، لأنها أوفر الأزمات نصيبًا من كلام الناقدين فى الآونة الحاضرة .

فمن المسئول عنها ؟ أيسأل عنها الرجال ؟ أيسأل عنها النساء ؟ أيسأل عنها الشبان ؟ أيسأل عنها الفتيات ؟ أيسأل عنها الحكام ؟ أيسأل عنها المحكومون ؟

ليس من المعقول أن يسأل عنها فريق من هؤلاء دون فريق . لأن الرجال لا ينشئون وحدهم والنساء لا ينشأن وحدهن . ولأن الشبان أبناء رجال ونساء والفتيات أخوات شبان وخطيبات فتيان ، فكل عيب فى طائفة منهم فهو دليل على عيب فى الطائفة الأخرى ، وكل علاج يوصف لإحدى الحالات لابد أن يتناول جميع الحالات ، وإلا فهو علاج مخفق عقيم .

وربما كانت الحالة المشكو منها ضرورة غالبة لا حيلة فيها للرجال ولا للنساء ، بل لا حيلة فيها للأمة بأسرها ، لأنها حالة عالمية تتساوى فيها الأمم وتتجاوز طاقة الآحاد والجماعات .

ولنضرب لذلك مثلاً من أزمة الزواج التى نحن فى سياقها . فإنها ترجع فى بعض أسبابها إلى أطوار عالمية لا حيلة فيها لطائفة واحدة ولا لأمة واحدة ، ولا تعالج إلا على أساس شامل لجميع الأقوام .

كان الشاب قبل مائة سنة يتزوج فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، وقلما يتجاوز العشرين إذا أفرط فى التسويف والتأجيل .

لأن إعداد الشباب للحياة الاجتماعية كان يومئذ يتم فى تلك السن الباكرة .. إلا فى النادر الذى لا يقاس عليه .

كان يتعلم الكتابة والحساب ويحفظ شيئًا من القرآن ويخرج للحياة العامة بهذا الزاد اليسير من التعليم ، وفيه الكفاية لمقتضيات الحياة فى تلك الأيام .

لكن العلوم فى العصر الأخير قد تشعبت واتسعت ، والأعمال قد تعددت وتنوعت ، والاستعداد للحياة العامة قد تطاول أمده من سنة أو سنتين إلى عشر سنين ، بل إلى ضعف ذلك الزمن إذا أريد التخصص فى علم من العلوم أو صناعة من الصناعات .

هذا هو سبب للتسويف فى الزواج لا حيلة فيه للشاب

ولا للفتاة ، ولا حيلة فيه لهذه الأمة أو لأمة أخرى على انفراد ، ولابد من مواجهته بعلاج شامل للأمم جمعاء ، أو محاولة التوفيق بينه وبين نظام الأسرة ومطالب الاجتماع .

ويشبه هذا السبب فى العموم والذيوع أن وسائل السهر والفرجة قد تضاعفت بزيادة المخترعات الحديثة كالصور المتحركة وسرعة المواصلات بين أقصى مكان وأقصى مكان . فهذه حالة لا تخص بلدًا من البلدان ولا طائفة من الطوائف ، ولابد لها من العلاج الشامل الذى قدمناه .

وهناك مسائل تدخل فى إرادة الفتيان والفتيات وتعالج بالقوانين أو يمكن أن تدخل فى نطاق التشريع ، ولكنها قد تفيد من جانب وتضر من جانب أو جوانب كثيرة . إذا اعتمدنا فيها على الإكراه وحده ولم نحسب معها حسابًا للعوامل الاجتماعية التى تجرى فى مجراها الطبيعى ، فتنجح حيث تخفق القوانين .

فى حالات كثيرة يكون الإحجام عن الزواج علة واهية تحتاج إلى قصاص من روادع المجتمع الطبيعية ، فلا ينبغى أن تتعرض لها القوانين إلا بمقدار .

تخطب الفتاة فتأبى الخطيب لأنه لا يضمن البقاء فى القاهرة أو فى عاصمة من العواصم الكبرى . أو تأباه لأنها لا تتزوج إلا من ضابط أو وكيل نيابة أو صاحب سلطة إدارية يقف على بابه الجنود والأتباع فى الملابس الرسمية ، وقد تغلو فى الطلب

فترفض التاجر والزارع ولو كانا من ذوى اليسار ، وترفض الشاب المثقف المتعلم لأن ثقافته لا ترشحه لوظائف السلطة ومظاهر الوجاهة ، وتنسى أنها تتزوج لتبنى أسرة مع زوجها لا لتدخل الأسرة التى فرغ الآباء والأجداد من بنائها .

فإذا تدخل القانون لإكراه الشبان على البناء بهؤلاء الفتيات فقد يشفى علة ويبقى عللاً أخرى فى بنية المجتمع هى أحوج إلى الشفاء .. وقد يحمى بتدخله أضرارًا لا تستحق الحماية ، لأنها أضرار تثنى عزائم الشبان عن اقتحام الحياة فى ميادينها المختلفة ، وتحرم الصناعات الشريفة حقها من الاحترام والإقبال ، وقد يكون الإعراض عن الزواج فترة من الزمن علاجًا لهذه العلل الواهية وعاملاً من عوامل الإصلاح الطبيعى فى أوانه وهو فى ظاهره داء من الأدواء إلى حين .

* * *

هذه أمثلة يسيرة للعلاقة بين الإصلاح الاجتماعى والقوانين وأداة التشريع على التعميم .

بينهما لا شك علاقة قائمة ، بل علاقة وثيقة لا انفصام لها ، ولكنها لا تستقيم ولا تفيد إلا على اعتبار واحد : وهو أن يكون القانون عنوانًا للرغبة العامة والشعور بالحاجة الصحيحة إليه ، وألا يكون القانون مع ذلك هو الوسيلة الوحيدة للإصلاح . لأنه

كما قدمنا يفسد فى أيدى الناس قبل أن يصلحهم ويحاول الخلاص من ضرر فيأتى بأضرار .

وهذا بعد كلام فى الإصلاح ...

نعم كلام !

ولكنه مرحلة من مراحل العمل إذا وجب أن يقال ، وإذا كان كلام الناس ضروريًّا فى مرحلة من مراحل الإصلاح - فهو والعمل سواء .

المفارقات أو القياس مع الفارق

المفارقات - أو القياس مع الفارق - هو شيء يلازمنا طول أيام الحياة ، يلازمنا فى الطفولة كما يلازمنا فى الشيخوخة ، ونراه فى مضحكاتنا كما نراه فى أحزاننا وعواقب أخطائنا . فكل ما يضحكنا من مسليات الأطفال الصغار والرجال الكبار فهو فى لبابه مفارقة أوقياس مع الفارق ، وكل ما يجر علينا الفشل ويجلب لنا الحزن والندم فهو فى لبابه مفارقة أو خطأ فى التفكير والنظر إلى الأمور ، أو قياس مع الفارق بعبارة أخرى . ومثل هذا الشيء الذى يلازمنا فى جميع أطوار الحياة ويلوح لنا فى جميع شئون الجد واللعب جدير منا بالدراسة والتأمل ، وجدير بأن نتعرفه ونتوسمه ، لئلا نضل عن وجهه حين نراه فى معارضه الكثيرة .

يقول بعض الناس إن المنطق والعاطفة شيئان مختلفان . وهذا صواب فى الظاهر خطأ فى الباطن ، أو هذا القول بعينه هو أول قياس مع الفارق نحب أن نلتفت إليه .

فحقيقة المنطق أنه يعرفنا الأشياء من جانبها الصحيح . والعاطفة ولا ريب لها جانب صحيح وجانب غير صحيح ،

فلا يمكن أن تكون مناقضة للمنطق متى عرفناها حق المعرفة وجمعنا مقدماتها ووصلناها وصلاً مستقيماً بنتائجها .

إذن لماذا تبدو لنا العاطفة مخالفة للمنطق فى كثير من الأحيان ؟ تبدو لنا كذلك لأننا نقيس الأمور قياسًا مع الفارق ، أى لأننا نقارن بين حقيقة وحقيقة أخرى لا تشبهها من جميع الوجوه . ونحن لا نعرف جميع العوامل التى تحرك العواطف وتدفع بها إلى غاياتها . ولو أننا عرفنا جميع هذه العوامل لاستطعنا حتما أن نعرف نتيجة كل عاطفة كما نعرف نتيجة الخسوف والكسوف بالحساب قبل وقوعهما بزمن طويل . وإذن ليست العواطف هى التى تناقض المنطق ، وإنما نحن الذين نجهل مقدماتها ولا نحسن قياسها . فنتوقع لها نتيجة غير نتيجتها الطبيعية المعقولة .

يحب رجل امرأة فيقتلها لأنه يغار عليها ، فيلوح لنا هذا العمل شاذًا مخالفًا للمنطق والقياس المعقول .

والواقع أن القتل هنا طبيعى يمكننا أن نتوقعه قبل حدوثه ، بل يمكننا أن نعرف ساعته ولحظته ومكانه لو أننا استطعنا أن نزن حرارة العاطفة ومدى قوتها وسرعتها كما نزن حرارة البخار والكهرباء .

فإذا قال أحد إن قتل الرجل المحب لحبيبته مخالف للمنطق فى جميع الأحوال فسبب ذلك أنه أخطأ فهم الحب ولم يخطر فى ذهنه

أن الحب قد يجن العقل ويشل الإرادة ويعذب النفس ويدفع بها فى هذه الحالة إلى الخلاص من العذاب بكل وسيلة تخطر على البال ، فيكون منطقيًّا فى ارتكاب الجريمة ، كما يكون الوحش منطقيًّا فى التهام الفريسة ، والمنطق فى هاتين الحالتين صحيح فى تقديراته ومقدماته ونتائجه . ولكننا نحن الذين فهمناه على غير وجهه وقسناه على غير قياس صحيح .

ويخيل إلى بعض الناس أن المنطق علم يكتسب بالتعلم دون الفطرة القويمة . والصواب أنه ملكة توجد فى الإنسان قبل أن يدرسه أو يفكر فى درسه . بل يوجد فى طبائع الأطفال والصغار ونرى دلائله كثيرة فى أسئلتهم وأحاديثهم وتفكيراتهم ، وقد يوجد فى طبائع هؤلاء الأطفال بكثرة تقل رويدًا رويدًا كلما ازدحمت على النفس تجارب الأيام . وعندما يقول لك الطفل الصغير كلمة مضحكة تأكد أنه قد فكر فيها من حيث لا يشعر تفكيرًا منطقيًّا تامًّا على حسب ما يعرف هو ، وإن كان تفكيره ناقصًا على حسب ما تعرف أنت ! بيد أن نقص معلومات الطفل لا ينفى صحة تفكيره المنطقى فى حدود تلك المعلومات .

لى صديق يؤدب طفلته الصغيرة بالزجر أو بالضرب الخفيف أحيانًا فتغضب منه وتشير إليه بأصبعها مقسمة متوعدة « أن تخبر أباه متى حضر ، وهذا تهديد مضحك ؛ ولا سيما إذا علمنا أن أباه

قد مات من زمن طويل ، وأنه لو كان عائشًا وحضر لما عاقب ابنه على تأديب طفلته الصغيرة .

هذا هو الجانب المضحك فى كلام الطفلة ، ولكنا إذا نظرنا إلى تفكيرها الباطن وجدنا هنالك المنطق السديد والصواب فى القياس ، على قدر ما تعرف من الحقائق البيتية .

فما الذى جعلها تهدد أباها ذلك التهديد ؟ الذى جعلها تهدده بذلك أمر معقول واضح التدليل . فهى إذا لعبت فى البيت أو كسرت آنية أو أغضبت أحدًا خوفتها أمها بإخبار أبيها متى حضر ، فإذا أغضبها أبوها فلماذا لا تخوفه هى أيضا بإخبار أبيه ؟ كل جوانب القياس هنا صحيحة على قدر الحقائق البيتية التى تدركها الطفلة . فهى لها أب وأبوها كذلك له أب وكذلك هو لابد أن يخاف أباه ، وهى إذا هددت بإخبار أبيها أقلعت عن اللعب أو التكسير أو الضجيج فالمعقول أنها متى هددته بإخبار أبيه أقلع هو أيضًا عن ضربها والإساءة إليها ... وهذا تفكير يخطر فى ذهن الطفلة الصغيرة بمثل لمح البصر . ولا نضحك نحن منه إلا لأنه قياس مع الفارق .. أى قياس شىء على شىء آخر لا يشابهه كل المشابهة ، والذنب هنا على نقص المعلومات لا على طبيعة التفكير .

وفكاهات الكبار لا تختلف من هذه الوجهة عن فكاهات الصغار ..

فلنتناول أية نادرة مضحكة من النوادر الشائعة نجدها قياسًا مع الفارق فى أسلوب يقرب من هذا الأسلوب .

ومثال ذلك أن جحا سيد المضحكين كان يجلس على فرع شجرة وهو دائب على نشره من منبته فى جذع الشجرة . فمر به عابر طريق وصاح به أن يكف عن النشر وإلا سقط إلى الأرض وكسرت عظامه . فلم يصدق جحا تلك النصيحة ومضى فى نشر فرعه حتى سقط فعلا إلى الأرض وأحس الألم فى عظامه ! .. هنالك أخذ بتلابيب الرجل وأقسم عليه ليخبرنه بيوم وفاته وإلا فما هو مفلت منه .

وهذا هو « القياس مع الفارق » بعينه ، قد يقصده واضع الحكاية أو لا يقصده كما فهمناه نحن ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن القياس مع الفارق ملازم لكل فكاهة من طراز هذه الفكاهات .

فهنا رجل يعلم الغيب لأنه أنبأ جحا بقرب سقوطه على الأرض وكسر عظامه وكلاهما غيب لم يكن قد حصل حين فاه الرجل بالنبوءة الصادقة . وما دام الرجل عالماً بالغيب فأى شىء أقرب إلى المعقول من أن يغتنم جحا هذه الفرصة ويسأله عن الغيب الذى يهمه أن يطلع عليه ؟ إذن لابد أن ينبئه عن موعد وفاته ، وإلا فهو يتعمد الضن بعلمه ويخفى عنه الحقيقة !

كذلك فكر « جحا » .. ولم تأته السخرية إلا من هذا

الشيطان الخبيث الرابض فى أطواء كل فكاهة .. وهو القياس مع الفارق .

إذ الغيب الذى أنبأه به الرجل – وهو سقوطه مع فرع الشجرة – غير الغيب الذى طالبه بعلمه – وهو يوم وفاته .

ذلك غيب معروف المقدمات ولهذا كانت نتائجه معروفة قبل وقوعها . أما الغيب الآخر فله مقدمات مجهولة ، فنتائجه لابد أن تظل مجهولة حتى تنكشف تلك المقدمات .

ولو كان قد ثبت لجحا أن صاحبه يعلم جميع الغيوب لكان سؤاله إياه عن موعد الوفاة معقولا لا سخرية فيه ، ولكنه قد ثبت له أنه يعلم نوعًا من الغيب فسأله عن نوع آخر .. وهنا موضع الفرق فى القياس .

على أن المفارقات تصادفنا فى جد الحياة كما تصادفنا فى أمثال هذه النوادر والفكاهات ، وإذا كانت تضحكنا فى أحاديث الأطفال وسخافات المغفلين فهى كثيرًا ما تزعجنا فى مهام الدنيا وشواغل الأعمال الجسام ، وكثيرًا ما تؤدى إلى قلة التفاهم بين أناس يحسبون من العقلاء الراشدين .

وقد يحسن أن يفرض هنا أمثلة قليلة من المفارقات التى نشاهدها كل يوم فى علاقاتنا الخاصة والعامة .

فمن هذه الأمثلة الشائعة المبدأ القضائى الصحيح الذى يقرر « أن الإنسان برىء حتى تثبت عليه التهمة » فهذا المبدأ مبنى

على تفكير صحيح قديم فى حالة القضاء دون غيرها ، ولسبب واحد دون غيره ، وهو ضمان العدل ونفى كل شبهة من شبهات الظلم والهوى فى الأحكام . لأننا إذا أجزنا للقاضى أن يحكم بغير دليل مقنع فسد القضاء وذهبت الطمأنينة وسهل الظلم على يد من يريده .

لهذا السبب وحده وضع المبدأ القائل بأن الإنسان برىء حتى يثبت اتهامه . أما الواقع فيقول لنا إن الإنسان جان من يوم يرتكب جنايته سواء ثبتت بعد ذلك بالشهادة والبينة والدليل أو حالت الموانع دون ثبوتها . بل نحن نجرى فى معاملاتنا جميعًا على نقيض المبدأ القضائى ثم يكون تفكيرنا صحيحًا كما أن التفكير فى المبدأ القضائى صحيح من جانبه للسبب الذى بيناه .

فإذا جاء رجل يقترض منك مبلغًا من المال فأنت لا تعطيه المبلغ المطلوب اعتمادًا على أنه برىء حتى تثبت لك خيانته ومماطلته فى سداد الديوان ، وإنما تجرى على قاعدة أخرى تناقض القاعدة القضائية كل المناقضة ، وهى أن كل إنسان متهم حتى تثبت لك براءته ، فتسأل عنه وتستقصى أموره وأخلاقه وعاداته لتنفى التهمة أولا ثم تجزم بالبراءة ، ولن تعطيه المبلغ قبل ذاك ولو كنت أسخى الأسخياء .

ومن هنا ترى كيف يتناقض المبدآن الصحيحان لأن كلا منهما

صحيح فى حالة دون سائر الحالات ، فإذا قسنا أحدهما على الآخر فهذا « القياس مع الفارق » الذى يوقعنا فى الخطأ ويجر علينا المتاعب ، وإذا عرفنا هذا الفارق خرجنا من كلا المبدأين بالرأى السديد .

مثل آخر وقع لى أنا وقد يكون من المفيد أن أطلعكم عليه : جاءنى خطاب من شخص لا أعرفه يستفتينى فى مسألة يحتاج شرحها إلى كتابة فصول مسهبة إن لم أقل إلى كتابة مجلد كبير .

لم يسعنى بالبداهة أن أجيبه إلى طلبه . ثم انقضت أيام فإذا خطاب منه يقارن فيه بين كتاب مصر وكتاب الغرب الذين قرأ عنهم أنهم يجيبون كل من يكتب إليهم من الأصحاب والغرباء .. فقلت فى نفسى : هذا القياس مع الفارق يطل علينا بأذنيه ! .

إن صاحب الخطاب قابل بين كاتب وكاتب وبين خطاب وخطاب وبين جواب وجواب ، وظن أنه استوفى المقابلة والمضاهاة ولم يبق عليه إلا إصدار الحكم بالإدانة ...

لكن ما أعظم الفارق بين الحالتين على ما يبدو بينهما من التشابه القريب . فالكاتب « أولا » إذا اتسعت شهرته فى أوربا تيسر له أن يستعين بمساعد أديب أو بأكثر من مساعد واحد لتحضير عمله والإجابة على رسائله . وقد تجاب الرسائل دون أن يطلع عليها الكاتب أو يعلم أنها أجيبت بتوقيعه ! والرسائل التى يرد عليها الكتاب بعلمهم أو بغير علمهم هى « ثانيًا » من قبيل

المجاملات والتحيات لا من قبيل تلك الفتوى التى يحتاج الرد عليها إلى كتاب .

وبعد هذا وذاك قد أخطأ صاحب الخطاب فى اعتقاده أن إجابة الرسائل سنة يجرى عليها جميع الكتاب المشهورين فى البلاد الغربية – فنحن نعلم أن « أناطول فرانسى » كان يأمر مساعده بإحراق بريده كله بغير استثناء . ونحن نعلم كذلك أن برناردشو قد رفض الجواب على الأسئلة التى وجهها إليه مترجم حياته ... لأنه لم يشأ أن يسخر فى تأليف فصل ينتفع به غيره . مع أن هذا الفصل المقترح عليه يدور حول ترجمته هو والدفاع عن سمعته وأدبه . فهذا هو الفارق الشاسع بين الحالة التى تخيلها صاحب الخطاب والحالة التى نحن فيها – ولعله هنا الآن فيفهم أن الذنب ذنبه هو أو ذنب القياس مع الفارق سامحه الله أو لم يسامحه على حد سواء !

وقد يجنى القياس مع الفارق على الأدباء كبارًا وصغارًا – فيحكمون على الأدب والثقافة أحكامًا تذكرنا بنوادر الأطفال التى ضربنا عليها بعض الأمثال .

فمن ذلك أن تسمع بعضهم يقول إن الهند أشعر البلاد الشرقية لأن طاغور – الشاعر الهندى – أحرز جائزة نوبل للأدب والشعر فى إحدى السنين .

وهذا قياس مع الفارق بل مع الفوارق الكثيرة التى لا تكاد تحصيها فى هذا المقام .

فيجب أولا أن نذكر المزايا التى تشترطها لجنة نوبل فى الشعر والكتابة لتستحق عندها الجائزة . فهى لا تريد أحسن الشعر على الإطلاق – ولكنها تريد الشعر مقيدًا بشرطين أحدهما خدمة السلام والآخر خدمة المثل الأعلى ووصف الإنسانية وصفًا متفائلاً يبعث على الرجاء . فالشاعر المتشائم لا نصيب له من جوائز نوبل وإن كان فى زمانه أنبغ الشعراء . وكذلك الشاعر الذى يشيد بذكر الحروب ويستثير الأوطان للكفاح والانتقام .. وعلى هذا يجوز أن يكون بين المعاصرين من هو أعظم شاعرية من طاغور ولكنه لا يشبهه فى التفاؤل وحب السلام ... وهذه مزية خلقية فى طاغور لأنها فى لبابها فطرة الشعوب الهندية من قديم العصور . فالسلم دين الهند الخالد وعليه نشأت جميع الآداب والأخلاق .

ثم يجب أن نذكر (ثالثًا) أن حكم اللجنة إنما كان على الكتب التى وصلت إليها وليس على جميع الكتب فى جميع الأمم الشرقية والغربية ، ويجب أن نذكر (رابعًا) أن حكم تلك اللجنة ليس بالقول الفصل الذى لا مناقشة فيه ، ولا معقب بعده . فقد توجد لجنة أخرى مؤلفة من فطاحل النقاد الذين لا يقلون فى العلم والنزاهة عن الأعضاء فى لجنة نوبل فيكون حكمها غير

حكمهم وتقديرها غير تقديرهم وربما كان أصدق من ذلك الحكم وأفضل من ذلك التقدير .

ويجب أن نذكر (خامسًا) أن جائزة نوبل يعطاها كل سنة شاعر أو كاتب من أمم مختلفة – فإذا قلنا إن الهنود من أشعر المشارقة لأن شاعرهم الكبير أحرزها فى إحدى السنين فقد حق علينا أن نقول قياسًا على ذلك أن جميع الأمم أشعر من جميع الأمم فى جميع السنين – وهذا هراء ليس له معنى معقول .

وكل هذه الفوارق البارزة وما ماثلها لم تبرز للأديب الذى نصب نفسه فى مقام الحكم وخبطها تلك الخبطة العشواء فى غير فهم ولا أصالة .. وأشباه هذه الخبطات غير قليلة فيما يكتب الأدباء والمتأدبون الذين يحسبهم الناس من الثقات فى هذا الضرب من التفكير .

فيقرب من مفارقة طاغور مفارقة أخرى عن المقارنة بين حالة القصة فى مصر وحالتها فى روسيا . فقد كان فى روسيا قصاصون عالميون قبل مائة سنة ولم ينبغ بعد القصاص العالمى بين المصريين . فتبادر إلى بعض الأذهان أن هذا الفرق يدل على قصور فطرى فى الملكات المصرية ... وليس من اللازم عقلاً ولا تجربة أن يكون هذا الفرق دليلاً على ذلك . إذ هناك فروق كثيرة بين روسيا ومصر تسمح بظهور القصاصين العالميين هناك قبل مائة سنة ولا تسمح بظهور أمثالهم فى هذه البلاد .

هناك فرق العدد الجسيم .. فالروسيا كان فيها قبل مائة سنة نحو مائة مليون من النفوس . وليس فى مصر الآن ما يزيد على سدس هذا العدد .

وإذا حسبنا العالم العربى كله فهو عالم مختلف البيئات والحكومات لا تسهل فيه الأعمال التجارية كما تسهل فى بلاد لها حدود واحدة وصلات حكومية متجانسة ... فإذا كان القارئون بين الروسيين قد بلغوا يومئذ مليونين لا أكثر كان فى هذا العدد كفاية لتوزيع عشرات الألوف من القصة الواحدة - وتزويد القصاص بالرزق الذى يعتمد عليه فى معاشه ويتيح له أن يتفرغ لكتابة القصة .

وهناك فرق الاتصال بين الروسيا والأمم الأوربية . فإن ما يكتبه الروس ينقل إلى اللغات الأجنبية ويصيب صاحبه الشهرة العالمية . أما فى مصر فليست الصلة بيننا وبين أوربا بهذا الضرب ولا بهذه السهولة .

وهناك فروق كثيرة فى نظام المجتمع ومشاكله وتكوين الأسرة والعلاقات بين الرجال والنساء لابد أن نحسب حسابها كله فى هذا الموضوع قبل أن نحصر الفرق فى ملكات الشعبين .

ولا يخفى أن إرسال الأحكام الجزافية فى أمثال هذه المسائل الكبرى عظيم الضرر فوق ما فيه من الخطأ وسوء الاستدلال .

فمن أضرار حكم كهذا الحكم على ملكات المصريين أنه يثبط

الهمم ويضعف فينا الثقة بأنفسنا والأمل فى مستقبلنا .

ومن أضراره أنه يصرفنا عن العلة الحقيقية فتظل هذه العلة كامنة بيننا بغير علاج . فلو أننا علمنا أن آفة القصة المصرية وآفة الأدب كله هى قلة الناشرين الذين يحسنون تنظيم العلاقات التجارية بين الأمم العربية فتروج الكتب ويستطيع الأدباء أن يعتمدوا عليها فى معاشهم - لو علمنا ذلك لاتجهت عزيمتنا إلى علاج هذه الآفة ولنجحت المعالجة لا محالة بعد قليل من المحاولة . أما تلك الأحكام الجزافية فكل ما نستفيده منها أن تضللنا عن الغاية وتضاعف علينا مشقة العلاج .. ونمضى فى سرد الأمثلة على المفارقات إلى غير نهاية فقد عرفنا أنها أكثر شىء فى الحياة - لأن الإنسان مطبوع على القياس وممنوع بأن ينسى بعض القرائن والأسباب أو يجهلها ويغفل عنها . فلا مناص له إذن من الوقوع فى المفارقات .. وخلاصة القول : إن توحيد الأسباب والمقدمات واجب علينا قبل الوصول إلى توحيد النتائج والأحكام . وإن القياس مع الفارق ملازم لنا فى الجد والفكاهة وملازم لنا فى أحاديث الصغار وآراء الكبار . فالالتفات إليه إنما هو فى باطن الأمر التفات إلى كل ما يجرى فى الحياة . وأقل ما نجنيه منه أن يزيدنا علمًا بالحقائق ويزيدنا علمًا بالفكاهات فيقل حظنا من الخطأ ويزيد حظنا من الضحك والسرور .

الإصلاح الاجتماعى ورباط الرقبة

فى حديث مضى تناولت الكلام عن الإصلاح الاجتماعى والقوانين ، ولا غرابة فى اقتران الإصلاح بالقانون . فإننا نسمع منذ القدم عن قوانين الإصلاح كما نسمع عن إصلاح القانون . فلا يستغرب السامع أن يقترنا فى موضوع واحد . أيًّا كان رأيه فى انتفاع المجتمعات بإصلاحات التشريع .

لكننا نتكلم عن الإصلاح الاجتماعى ورباط الرقبة وغيره من الأشياء . وهو اقتران غريب فى أذن كل سامع . وغريب أيضًا فى أذنى حين سمعته ، ولهذا استحق لغرابته أن يكون موضوع حديث .

إن العلاقة بين الإصلاح الاجتماعى ورباط الرقبة بعيدة جدًّا فى رأى الأكثرين ، أو غير موجودة على الإطلاق فى رأى آخرين . ولكن الإصلاح الاجتماعى باب يطرقه كل إنسان ، فلا عجب أن يختلط به بعض العجب ... لأن العجائب فى أخلاق الناس ، وفى تفكيرهم ، ليست من نوادر الأمور .

ومن الواجب أن أبادر إلى استدراك لازم فى هذا المقام ، وهو أننى لا أعنى بأصحاب العجائب أنهم قوم من الهمل

أو النكرات ، أو الذين لا يعول لهم على رأى أو كلام . فإننى لاأروى فى هذا الحديث شيئًا عن واحد من هؤلاء ، ولا أتجاوز طبقة الخاصة المعدودة فى هذه المذاهب الإصلاحية ، وفى مقدمتها مذهب رباط الرقبة على الخصوص .

فيجب أن نعلم مثلًا أن رجلًا من الخاصة المعدودين يربط بين الأمرين هذا الرباط الوثيق ، ويعتقد أن البحث فى هذه المسألة أولى من البحث فى تعديل البرامج المدرسية أو تعديل الدستور وقانون الانتخاب . ويتكلم الناس عن نظام العمل فى الدواوين فيصيح بهم مستنكرًا غفلتهم عن السر الدفين : كيف ينتظم عمل من الأعمال ورباط الرقبة يباع اليوم بأربعة جنيهات ؟

قال ذلك ولا حاجة بى إلى سرد التعليقات التى قوبل بها هذا السؤال ، ففى مصر – بلد النكتة والقافية – لا تبقى كلمة من كلمات الربط أو العلاقة أو الفتق أو الخناق إلا انهالت على السائل ، بعد الاعتذار بحكم القافية .. وهو حكم نافذ القضاء .

وقد أفرغ السامعون جعبتهم وسمحوا لصاحبنا بلحظات من الوقت يشرح بها مذهبه فى الإصلاح . فعاد متسائلًا وقال : أتنتظرون من رجل يلبس رباطًا للرقبة ، بأربعة جنيهات ، أن يهين نفسه فى العمل أو يلتفت إلى شىء غير الأناقة وحسن الهندام ؟ أتظنون أن الموظف الصغير يعف عن الكسب الحرام إذا رأى مثل ذلك الرباط فى عنق رئيسه وطمع فى محاكاته ؟ وماذا

على الحكومة لو أنها أصدرت أوامرها بإلغاء هذا الرباط وحرمت على موظفيها أن يلبسوه ؟ أليس هذا أنفع لها من البحث فى الدرجات ومشروعات الإنصاف أو من الاستغناء عن طائفة من الموظفين ؟

والظريف فى الأمر أن السخرية التى انهالت على هذا المصلح الغيور لم تعلم أحدًا من السامعين كيف يتقيها فى لمحة عين . فإن الساخر الذى كان أشد السامعين سخرية بصاحبنا لم يلبث أن أصيب بعدواه وألقى بدلوه فى الدلاء . فقال وهو يتخذ هيئة الجد كأنه يهيئ الأذهان للانتقال من المزاح إلى القول المفيد : كلا . كلا إن رباط الرقبة و « شرابة الخرَج » فى مسألة الإصلاح سواء . ولكنى أخبركم بالشىء الذى يجب على الحكومة أن تمنعه كل المنع ، فتعمر البيوت وتنقطع شأفة الفساد : يجب على الحكومة أن تمنع أحمر الشفاه وقلم الحواجب ، ثم انظروا كيف تنصلح الأخلاق وتأمن الأسر غائلة الفتنة وأسباب الفراق والطلاق ؟

وأخذ المصلح الجديد نصيبه من القافية التى لا ترحم ولا تعذر ، ثم سمح له بالشرح كما سمح به لزميله من قبل فقال :

نعم يتوقف الشىء الكثير من صلاح البيوت على تحريم أحمر الشفاه وقلم الحواجب ، لأن المرأة تهتم بالتخطيط والتلوين من

أجل الشارع لا من أجل البيت ، وتريد إذا تزينت أن يراها الناس ولا يهمها أن يراها الزوج أو من يعيشون معها فى بيت واحد . لأنهم يرونها بغير زينة ولاطلاء فى كل صباح ومساء .

وماذا تنتظر من امرأة تتزين للأعين الغريبة وتخرج إلى الطريق مترقبة للاستحسان ، وما يتبعه من كلمات الثناء والإغراء ؟ .. أليس هذا هو باب الشر وباب الشك وسوء النية وما وراءه من الخلاف والطلاق ؟

ويظهر أن المصلح الجديد قد فكر طويلاً فى مذهبه ودرسه من جميع أطرافه ، لأنه استطرد من ذلك إلى التفرقة بين الماضى والحاضر فى عصر الحجاب وعصر السفور . فقال إن المرأة كانت قليلة الخروج يوم كانت مبرقعة ضافية الثياب ولم تكن تهتم بغير الكحل لأن البراقع لا تستر العينين . فلما انكشفت الخدود والشفاه وانحسرت الثياب عن المعاصم والسيقان زاد الاهتمام بالشارع وقل الاهتمام بالبيت ، ولو بدأنا بتحريم الطلاء على ألوانه لاستغنينا شيئًا فشيئًا عن تحريم ما عداه من المحظورات والمغريات .

والحق أننا نظلم مصلح الطلاء إذا سوينا بينه وبين مصلح « الكرافته » . لأن كلامه لا يخلو من بعض الحق وبعض العبرة . فلا جمال فى الطلاء ولا فائدة . وإذا كان فيه جمال فى بعض الأنظار فهو جمال على الوجه أو جمال قشرة . وخير منه

أن تسفر الوجوه عن بشرتها الطبيعية فتتعود المرأة تحسين منظرها بتحسين صحتها واكتساب ألوان النضرة والرواء بالرياضة الحسنة والغذاء الصالح والبساطة فى المعيشة . ولكن الجانب الضعيف فى مذهب هذا المصلح - مصلح الطلاء - هو اعتقاده أن منع الأحمر والأسود يقعد النساء فى البيوت ويجنبهن الخروج إلى الطريق . فهو ظن لا يسوغه الواقع المشاهد فى كل مكان . لأن الدميمات يملأن الطرقات ولا ضير على المليحات الفاتنات أن يبرزن للأنظار بغير طلاء .

على أن مذهب « الكرافته » نفسه لا يخلو من وجهة نظر مقبولة ... فكثيرًا ما يخطر على الأفكار وعلى الألسنة هذا السؤال : لماذا يعلق الناس بأعناقهم هذه الفضلة التى لا تجمعها بأجزاء الكساء جامعة معقولة ؟ ولماذا لا يستغنون عنها أو يستبدلون بها نوعًا من الزينة التى لا تنادى على نفسها بأنها « زينة » فقط ، وأنها زينة بغير معنى ؟ ولا شك أن الناس يتحولون عنها شيئًا فشيئًا فى ملابس الصيف أو فى الملابس الرياضية ، ومن استبقاها فإنما يستبقيها لأنه يتعرض بخلعها للانتقاد والاتهام بالشذوذ وحب الإغراب . لا لأنه يعرف للبسها معنى يرتضيه .

وأذكر من طرائف هذه الفضيلة الفضولية محاورة بين زعيم سياسى من الأطباء وبين زوجته الذكية ، وهما يتجادلان فى

سوابق الاستعباد بين جنس آدم وجنس حواء . فقال إن الاستعباد قديم فى جنس حواء بدليل الأساور فى اليدين ، وهى بقية الأغلال والسلاسل .. وقالت : إنه هو قديم فى جنس آدم بدليل الرباط فى الأعناق ، فهو بقية الحبل الذى كان يقاد به قديماً فينقاد !

وهكذا تصبح الدعوة إلى خلع « الكرافتة » دعوة إلى الحرية والقضاء على بقية الاستعباد ورمز الخضوع والانقياد ، ويوجد للإصلاح الاجتماعى الذى يقوم على خلعها سبب وجيه لم يكن لأصحابه فى الحسبان .

ولم تنته مذاهب المصلحين فى تلك الجلسة بمنع رباط الرقبة ومنع الطلاء . بل أضيف إليهما منع آخر هو منع التبغ والقهوة والشاى . فإن تحريمها - والعهدة على صاحب الرأى - ألزم من تحريم الخمر والمخدرات . لأن الناس يتعاطون الخمر فى أوقات ويحسبون من المرضى إذا أفرطوا فى تعاطيها إلى درجة الإدمان . أما التبغ والقهوة والشاى فهى عادة دائمة تلازم المرء طول نهاره وساعات اليقظة من ليله ، وتجعله كالآلة التى أكلها الصدأ فهى فى حاجة إلى الترتيب والتنبيه ، بعد أن كان الإنسان فى العصور الغابرة قادرًا على العمل المتواصل بغير حاجة إلى هذه المنبهات .

* * *

إننا لا نحصى مذاهب الإصلاح الاجتماعى التى من هذا

القبيل ، ولكنا نشير إلى أمثلة منها تذكر المستمعين بما حضروه من أحاديثها ، وهى تتفاوت فى الذيوع والتكرار . فمنها ما يسمع فى كل بيئة ، ومنها ما يسمع فى بيئة دون أخرى ، ولعلى أتهم بالنسيان إذا لم أختمها بمثل واحد هو على التحقيق أشيعها وأروجها فى أكثر البيئات ... وهو مذهب التليفون : أعنى إلغاء التليفون ، أو إقامة الرقابة على التليفون ، لأنه وسيلة سهلة للقيل والقال والوشاية والاتصال ، وقد سمعته مرات بعد مرات ، وسمعته بالتليفون كما سمعته بالأذن المجردة ... فهو أشيع ما قيل فى مذاهب الإصلاح من هذا القبيل ، وهو كذلك أغرب ما قيل ! .

* * *

وخلاصة هذا كله تنتهى بنا إلى نتيجتين لا تضيع فى تحصيلها الدقائق المعدودات :

أولى النتيجتين أن الناس يستسهلون الإصلاح بالمنع والتحريم ولا يفكرون كثيرًا فى الإصلاح بالعمل والإنشاء ، فإذا استمعت إلى مائة يتعرضون لهذا الموضوع فقد تسمع تسعين منهم يمنعون هذا ويحرمون ذاك ، قبل أن تسمع منهم من يوصى بعمل أو يعمد إلى بناء ، وهذه بقية من بقايا الحجر على الطبائع والعقول لا ننجو منها كل النجاة إلا إذا تعودنا أن نفهم الخير فهم الراشدين ، الذين يعملون غير مأمورين ولا مكرهين .

أما النتيجة الثانية فهى أدعى إلى التسلية والراحة . لأنها تخفف عنا شيئًا من أعباء الحياة ، وترينا أن الجد الخالص فى هذه الدنيا مستحيل ، وأن الهم فى كبار الأمور وصغارها لا يخلو من جانب فكاهة وجانب ابتسام . فلو تكلم أخلاط من الناس فى الموت نفسه لسمعت منهم ما يضحك الحزين ويخف محمله على العقول ، وقد رأينا كيف يضحكون ويضحكون وهم يتناولون عيوب الأمم ومذاهب الإصلاح . ونعم الموضوع موضوع مبارك يطرفنا بالتسلية إن لم ينفعنا بالموعظة الحسنة والنصيحة الجدية . فلا نخطئ التشبيه إذا قلنا إن مذاهب الإصلاح كورقة النصيب الخيرى : إن أصابت فهى ثروة وإن أخطأت فهى إحسان .

الفهرست

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٤٧٦٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٤٢١-٣	ISBN

١ / ٨٤ / ٢٠٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

١٨٩٦٢ / ٠١

م
٥٠٠